التّفسـير

« القرآن الكريم يقصّ أحسن القصص ،
ومنه قصّة يوسف عليه السّلام
الّذي علّمه ربّه تعبير الرّؤى »
الآيات (١ ـ ٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك ءايت الكتب المبين ﴿١﴾ إنا أنزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون ﴿٢﴾

تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿ الر ﴾ والحروف المقطّعة هنا ثلاثة حروف وذلك على غرار الحروف الثّلاثة المقطّعة الّتي تبدأ بها أكثر السّور التّسع والعشرين التي تبدأ بهذه الحروف[1] وبذلك تسير هذه الحرف في أوائل السّور وفق طرائق العرب في بناء الألفاظ ، فإنّ أكثر كلام العرب من الثّلاثيّ[2] وإذا كانت السّور التي تبدأ بهذه الحروف يجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور أو التّراخي فإنّ سورة يوسف يجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور . وكلّ هذه الأمور ممّا يقوّي الرّأي الذي ذهب إليه فريقٌ من العلماء بأنّ الحروف المقطّعة في أوائل السّور امتدادٌ لإعجاز القرآن الكريم وذلك بالتّنبيه على أنّ القرآن الكريم المعجز مؤلّف من ألفاظ اللّغة العربيّة ولكنّ المبنى والمعنى نسيجا وحدهما . وفي مقابل هذا الرّأي رأيٌ آخر لفريقٍ من العلماء يقول بشأن هذه الحروف : « الله أعلم بمراده بذلك » .

وتشير الآية الكريمة الأولى إلى آيات الكتاب المبين باسم الإشارة : ﴿ تلك ﴾ الدّالّ على البعد تنبيهاً على رفيع منزلة الكتاب العزيز . ويوصف الكتاب بأنّه مبينٌ للحقّ والباطل ، الحلال والحرام ، ولكلّ خيرٍ كي يُفْعل ، ولكلّ شرٍّ كي يُهْجَر .

والآية الكريمة الأخرى تبيّن أنّ ربّ العزّة هو الذي أنزل الكتاب المبين قرآناً عربيّاً لعلّنا نعقل معانيه فنهتدي إلى الطّريقة التي هي أقوم . وإذا كانت الآية الكريمة الأولى قد استعملت في حقّ آخر الكتب السّماويّة وأشرفها لفظة ﴿ الكتاب ﴾ تنبيهاً إلى دور الكتابة في حفظ هذا الكتاب العزيز إلى يوم الدّين ، فإنّ الآية الكريمة الثّانية قد استعملت لفظة : ﴿ قرآناً ﴾ تنبيهاً إلى دور القراءة والتّلاوة والاستظهار غيباً في حفظ هذا الكتاب العزيز إلى يوم الدّين

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١١٨ تحقيق السّيد أحمد صقر . دار المعارف الطّبعة الثّالثة .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ١١٨ .

مصداقاً لقول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

والله سبحانه وتعالى أنزل أشرف الكتب ، بواسطة أشرف الرّسل من الملائكة ، وهو جبريل عليه السّلام ، على أشرف الرّسل وخاتم النّبيين محمّد بن عبدالله ﷺ الرّسول النّبيّ الأمّيّ العربيّ القرشيّ الهاشميّ في أشرف اللّغات وهي اللّغة العربيّة ، وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلّا بلسان قومه ليبيّن لهم فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء . وهو العزيز الحكيم ﴾ والقرآن الكريم نزل ابتداءً في مكّة المكرّمة أشرف البقاع ، ونزل ابتداءً في أشرف الشّهور شهر رمضان المبارك وقد قال عزّ من قائل[3] : ﴿ شهر رمضان الّذي أنزل فيه القرآن هدًى للنّاس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان ﴾ فالقرآن الكريم أشرف الكتب ، نزل بواسطة أشرف الملائكة جبريل عليه السّلام ، على أشرف الرّسل ، في أشرف الشّهور ، في أشرف الأمكنة ، في أشرف اللّغات .

والحثّ على استعمال العقل استعمالاً صحيحاً في القول : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ حثٌّ على هذا الاستعمال الصّحيح للعقل في موضعٍ من بين ما يقرب من أربعين موضعاً في القرآن الكريم .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة يقصّ في هذا الكتاب العزيز على المصطفى ﷺ أحسن القَصص الذي يبيّن طريق الحقّ كي يتّبع ، وطريق الشّرّ كي يُتَنَكّب ، بإيحائه عزّ وجلّ إلى حبيبه المصطفى ﷺ القرآن الكريم الذي يشار إليه في الآية الكريمة باسم الإشارة : « هذا » الذي يُسْتَعْمَل في القرب ، دليلاً على لصوق هذا الكتاب العزيز بالقلوب ، وملئه للصّدور . وتقرّر الآية الكريمة أنّ المصطفى ﷺ من قبل نزول القرآن الكريم عليه لمن الغافلين عن معاني القرآن الكريم الجميلة ، ومنها أحسن القصص . وإنْ مِنَ القول : « وإن

---

(١) سورة الحجر ٩ .

(٢) سورة إبراهيم ٤ .

(٣) سورة البقرة ١٨٥ .

كنت » هي المخفّفة من الثقيلة إنّ ، واسمها ضمير الشّأن محذوف[1] واللّام هي التي تفرق بينها وبين النّافية[2] .

ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة أنّ من معاني الغفلة عدم العلم تماماً بوجود الشّيء الذي يتعلّق تعلّقاً شديداً بالغافل في مجال الخير أو الشرّ . والغفلة هنا متعلّقةٌ بالخير . وهذا المعنى يؤكّده مثل قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً للمصطفى ﷺ في سورة الشّورى[3] : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا . وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم . صراط الله الذي له ما في السّماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

يا : حرف نداء .

أبت : منادى مضاف منصوب وعلامة النّصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم . ونقلت الكسرة ـ كسرة المناسبة ـ إلى التّاء المبدلة من ياء المتكلّم . والياء المحذوفة مضافٌ إليه[4] .

لم يكن المصطفى ﷺ قبل إيحاء الله تعالى القرآن الكريم إليه على علمٍ بأحسن القصص ولم يكن على علمٍ إذ قال يوسف عليه السّلام لأبيه يعقوب عليه السّلام يا أبت إنّي رأيت في المنام أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم جميعاً لي ساجدين سجود العقلاء ولهذا جاء جمع العقلاء : « ساجدين » وقد فسّر الأحد عشر كوكباً بأنّهم إخوة يوسف عليه السّلام فقد كان ليعقوب عليه السّلام اثنا عشر ولداً ذكراً ، وكان يوسف وبنيامين شقيقين ، وكان بنيامين أصغر الأبناء ويكبره مباشرةً يوسف عليه السّلام[5] كما فُسّرت الشّمس بأنّها أمّه

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢١/٦ وصحّة رقم الصّفحة ٣٢٥ .
(٢) الكشّاف ١٢١/٢ .
(٣) الآية ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢١/٦ وصحّة رقم الصّفحة ٣٢٥ .
(٥) انظر مثلاً البحر المحيط ٢٨٢/٥ .

والقمر بأنّه أبوه . روي هذا عن ابن عبّاس والضّحّاك وقتادة وسفيان الثّوريّ وعبدالرّحمن بن زيد بن أسلم[1] إنّ يوسف عليه السّلام رأى في المنام هذه الكواكب الأحد عشر والشّمس والقمر ساجدين له عليه الصّلاة والسّلام سجود العقلاء . ويلاحظ أنّ يوسف عليه السّلام الآن طفلٌ بريء ، ويرى هذه الرّؤيا العظيمة . ونستطيع أن نفهم براءة يوسف عليه السّلام وصغر سنّه من قصّه ببراءةٍ هذه الرّؤيا الخطيرة على والده نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام الذي كان يرى بنور الله تعالى وكان يتوسّم في يوسف عليه السّلام بخاصّةٍ خيراً عميماً ، كما أنّا نستطيع أن نفهم براءة يوسف عليه السّلام وصغر سنّه من هذا التّعبير الذي يفيض بالودّ : « يا أبت » فهو عليه الصّلاة السّلام يقول : « يا أبت » ولا يقول : « يا أبي » وسوف نتبيّن أنّ يعقوب عليه السّلام يبادل أحبّ أبنائه إليه ودّاً بودّ وذلك باستعمال تصغير التّمليح في القول : « يا بنيّ » في الآية الكريمة التّالية دون القول : « يا ابني » أو : « يا ولدي » . قرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج يا أبت بفتح التّاء وباقي السّبعة والجمهور بكسرها[2] .

ونستطيع أن نتبيّن في صيغة الزّمن الماضي في القول : « إنّي رأيت » تأكيداً لبراءة يوسف عليه السّلام وصغر سنّه ، وذلك حينما نقارن بين صيغة الزّمن الماضي في القول على لسان الصّغير البريء يوسف عليه السّلام : « إنّي رأيت » دليلاً على أنّ يوسف عليه السّلام ليس في ذهنه شيءٌ وراء قصّ الرّؤيا ببراءة على والده ، وليس في نفسه شيءٌ ذو بال يترتّب على هذه الرّؤيا ، حينما نقارن بين صيغة الزّمن الماضي هنا وبين صيغة الزّمن المضارع التي جرت على ألسنة الفتيين في السّجن وملك مصر الذين رأى كلٌّ منهم رؤيا ، وكان كلٌّ حريصاً على معرفة تأويلها وما تئول إليه . جاء عن الفتيين القول[3] : ﴿ ودخل معه السّجن فتيان . قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً . وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه . نبّئنا بتأويله . إنّا نراك من المحسنين ﴾ وجاء عن ملك مصر القول[4] : ﴿ وقال الملك إنّي أرى سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجافٌ وسَبْعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ . يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرُّؤيا تَعْبُرون ﴾ .

ونستطيع وراء ذلك أن نتبيّن صفاء نفس يوسف عليه السّلام من انعكاس صفاء

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٨/٢ .

(٢) البحر المحيط ٢٧٩/٥ .

(٣) سورة يوسف ٣٦ .

(٤) سورة يوسف ٤٣ .

المنطقة في رؤياه . إنّ هذا المستوى الرّفيع من الصّفاء تجلّى في كون الكواكب أحد عشر كوكباً بالتّمام والكمال كعدد إخوته ، وفي اجتماع الشّمس والقمر معاً . ونستطيع أن نفهم بداهةً أنّ القمر كان بدراً . والمعروف أنّ القمر حينما يكون بدراً ليلة النّصف من الشّهر لا يجتمع مع الشّمس بحالٍ من الأحوال . وإنّما سمّي القمر تلك اللّيلة بدراً لمبادرته الشمسَ بالطّلوع[1] وكأنّه يسارع بقصد أن يسبقها . « يقال : بَدَرت دمعتُه وبادرت ، إذا سَبَقَتْ ، فهي بادرة ، والجمع بوادر . قال كثيّر :

إذا قيل هذي دار عزّةَ قادني إليها الهوى واستعجلتني البوادر »[2]

وقد جاء تأويل رؤيا يوسف عليه السّلام هذه في الآية الكريمة تمام المائة من سورة يوسف . قال تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً وقال يا أَبَتِ هذا تأويل رؤياي من قَبْلُ قد جعلها ربّي حقّاً ﴾ ويلاحظ التّوافق بين الموضعين والموقفين في القول : « يا أبت » .

وقد أكّد يوسف لأبيه عليه السّلام في القول : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ أنّ السّجود كان له على جهة الخصوص . والمراد بالسّجود هنا سجود التّعظيم . أمّا سجود العبادة فلا يكون إلّا لله تعالى وحده لا شريك له . ويُرْوَى أنّ سجود التّعظيم كان آنذاك جائزاً « وأجمع المفسّرون أنّ ذلك السّجود على أيّ وجهٍ كان[3] فإنّما كان تحيّةً لا عبادة ، قال قتادة : هذه كانت تحيّة الملوك عندهم . وأعطى الله هذه الأمّة السّلام تحيّة أهل الجنّة »[4] .

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النّبيّ ﷺ قال : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم[5] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سُئِل رسول الله ﷺ : أيّ النّاس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم النّاس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونني ؟ قالوا نعم . قال : فخياركم في الجاهليّة خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا[6] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بدر » ٣٨ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة : « بدر » ١/٢٠٩ .

(٣) من سجودٍ على الجبهة أو إيماءٍ أو انحناء أو ركوع .

(٤) تفسير القرطبيّ ٣٤٩٤ .

(٥) صحيح البخاريّ ٦/٩٥ .

(٦) صحيح البخاريّ ٦/٩٥ .

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

جاء على لسان الابن البريء في الآية الكريمة السّابقة القول : « يا أبت » وجاء على لسان الأب الحنون في هذه الآية الكريمة التّالية القول : « يا بنيّ » إنّنا بصدد تصغير التّمليح ، أو تصغير التّحبيب والتّقريب والشّفقة كما يقول أبو حيّان[1] إنّ الأب الشّفيق يعقوب عليه السّلام الذي ينظر بنور الله تعالى والذي تبيّن وتوسّم في ابنه الحبيب يوسف من بشائر الخير وإرهاصات النّبوّة ما لم يتبيّن ولم يتوسم في واحدٍ من أبنائه الآخرين الأحد عشر ينادي ابنه الحبيب في صيغة التّمليح والتّحبيب : « يا بنيّ » بين يدي نهيه أن يقصّ رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً ، ويمكروا به مكراً بتسويلٍ من النّفس الأمّارة بالسّوء ، وتزيينٍ من الشّيطان الرّجيم البيّن العداوة للإنسان .

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

وكذلك يجتبيك ربّك : كما أراك ربّك الكواكب والشّمس والقمر لك سجوداً فكذلك يصطفيك ربّك[2] ويختارك[3] .

ويعلّمك من تأويل الأحاديث : ويعلّمك ربّك من علم ما يئول إليه أحاديث النّاس عمّا يرونه في منامهم وذلك تعبير الرّؤيا[4] .

نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام يجري على لسانه ما استقرّ في نفسه من فضلٍ عظيمٍ من الله تعالى سينال ابنه الحبيب يوسف عليه السّلام ، وما فهمه بنورٍ من الله تعالى من نعمةٍ كبرى من الله تعالى ستخصّ ابنه يوسف عليه السّلام من بين سائر إخوته . إنّه عليه الصّلاة

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٨٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٩ والجلالين .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٢ .

والسّلام يبيّن في صدقٍ السّبب الذي من أجله نهى يوسف عن قصّ رؤياه على إخوته ، وهذا السّبب هو داء الحسد لأجل النّعم التي سيختصّه الله تعالى بها . إنّ يعقوب عليه السّلام يقول لابنه : وكما أراك الله تعالى في منامك هذه الرّؤيا ذات الدّلائل الجليلة والبشائر العظيمة يصطفيك ربّك بنعمه الكثيرة ، ويعلّمك من تأويل الأحاديث وتعبير الرّؤى ، ويتمّم نعمته عليك بكبرى النّعم وهي نعمة النّبوّة كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء ، وابنه إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام . إنّ ربّك عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، حكيمٌ في كلّ أقواله وأفعاله وقدره وفي كلّ شيءٍ جلّ وعلا ؛ ومن ذلك اصطفاؤك بهذه النّعم .

والمعروف أنّ يوسف عليه السّلام كان بفضل الله تعالى أعبر النّاس للرّؤى ، والمعروف أنّ للرّؤى دوراً كبيراً في دفع أحداث القصّة في سورة يوسف إلى الأمام . إنّ يوسف عليه السّلام يرى في أوّل القصّة رؤيا تعبّر في نهاية القصّة . وإنّ الفتيين يريان رؤيين يعبّرهما يوسف عليه السّلام . وكانت نجاة أحدهما بإذن الله تعالى سبباً في تذكّره يوسف عليه السّلام المعبّر للرّؤى لدى الملك الذي رأى بدوره رؤيا كانت بإذن الله سبباً في خروج يوسف من السّجن بعد تعبير الرّؤيا وإصراره عليه السّلام ألّا يخرج من السّجن حتّى يسأل الملك عن حال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ بالسّكاكين .

((يوسف عليه السّلام يجعله إخوته
في غيابة الجبّ فتلتقطه سيّارةٌ
وتبيعه في مصر بثمنٍ بخسٍ))
الآيات (٧ ـ ٢٠)

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾

تقرّر الآية الكريمة بأنّ في قصّة يوسف عليه السّلام وحسد إخوته له آياتٍ وعظاتٍ وعبراً للسّائلين عن قصّتهم العجيبة وحوادثها الغريبة .

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾

ليوسف وأخوه : يعنون بنيامين ، وكان شقيقه لأمّه[1] .

ونحن عصبة : ونحن جماعة ذوو عدد أحد عشر رجلاً . والعصبة من النّاس هم عشرة فصاعداً ، قيل إلى خمسة عشر ، ليس لها واحدٌ من لفظها كالنّفر والرّهط[2] والعصبة جماعة متعصّبةٌ مجتمعة الكلام متعاضدة[3] .

اذكر إذ قال بعض إخوة يوسف لبعضهم الآخر ، ليوسُفُ وأخوه من أمه بنيامين أحبّ إلى أبينا منّا وهما طفلان صغيران ونحن عصبةٌ وجماعة ، تُعْصَب بنا الأمور ، وتُقْضي بنا الحوائج . إنّ أبانا لفي ضلالٍ مبين وخطأٍ واضح .

والذي نودّ توكيده هو أنّ يعقوب عليه السّلام كان الغاية في العدل بين أبنائه فيما يملك . أمّا ميل القلب الفطريّ لأحد الأبناء أو لبعضهم فإنّ هذا أمرٌ لا يملكه يعقوب عليه السّلام ولا غيره . إنّ محمّد بن عبدالله ﷺ كان قلبه يميل إلى السّيّدة عائشة رضي الله عنها بأكثر من سائر زوجاته عليه الصّلاة السّلام . إنّ المصطفى ﷺ كان عادلاً مع زوجاته فيما يملك ، أمّا ميل القلب الفطريّ الذي لا يملكه فإنّه أمرٌ معفوٌّ عنه من ناحية ، هذا إلى أنّه ﷺ كان يسأل ربّه جلّ وعلا أن يغفر له ما لا يملك من ناحيةٍ أخرى .

لقد كان المنتظر من إخوة يوسف عليه السّلام أن ينظروا إلى الأمر من هذه النّاحية الواسعة وهم عصبة وليس من زاويته الضيّقة غير الحقيقية للدّرجة التي يتّهمون معها والدهم نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام بسبب ميل قلبه الفطريّ إلى يوسف وأخيه بأنّه في ضلالٍ مبين .

ويبدو أنّ الذي حدا بالإخوة إلى سوء الظّن بأبيهم نبيّ الله تعالى يعقوب عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٢ وتفسير الطّبريّ ٩٢/١٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩٢/١٢ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عصب » ٣٣٦ .

السّلام ، ففهموا ميل القلب الفطريّ بأنه حبّ خاصٌّ بالأخوين ، هو حسد هؤلاء الإخوة ليوسف عليه السّلام بالذّات ، فوصفوا أباهم بالضّلال المبين من ناحية ، وقرّروا التخلّص من يوسف عليه السّلام من ناحيةٍ أخرى .

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

يخل لكم وجه أبيكم : يخل لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف فإنّه قد شغله عنّا وصرف وجهه عنّا إليه(١) .

وتكونوا من بعده قوماً صالحين : أضمروا التّوبة قبل الذّنب(٢) .

وألقوه في غيابة الجبّ : قعر الجبّ(٣) وأسفله(٤) والجبّ : البئر غير المطويّة(٥) قال قتادة : وهي بئر بيت المقدس(٦) .

يلتقطه بعض السّيّارة : يأخذه بعض مارّة الطّريق من المسافرين(٧) والسّير : المضيّ في الأرض . ورجلٌ سائرٌ وسيّار . والسّيّارة الجماعة(٨) .

تبيّن من الآية الكريمة السّابقة أنّ يوسف عليه السّلام وبنيامين شقيقه لأمّه قد جعل منهما الإخوة العشرة الباقون قسماً قائماً بذاته .

وفي الآيتين الكريمتين اللّتين نحن بصددهما ينقسم الإخوة العشرة ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل الذي لا نعرف عدد أفراده على جهة التّحديد يرى قتل يوسف عليه

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٣/١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٠/٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٣/١٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٠/٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٩٣/١٢ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جب » ٨٥ .
(٦) تفسير ابن كثير ٤٧٠/٢ وتفسير الطّبريّ ٩٣/١٢ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٩٤/١٢ .
(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سار » ٢٤٧ .

السّلام والذي جرى على لسانه القول : « اقتلوا يوسف » .

القسم الثّاني الذي لا نعرف كذلك عدد أفراده على جهة التّحديد يرى طرح يوسف عليه السّلام أرضاً مخوفةً ممتلئةً بالحيوانات المفترسة كالذّئاب مثلاً وتركه هنالك وحيداً يلقى المصير الغالب بأن يأكله واحدٌ من الحيوانات المفترسة أو قطيعٌ منها وجبةً لذيذةً شهيّةً حيث لا يكون من الطّفل الصّغير البريء يوسف عليه السّلام سوى الاستسلام للمصير المحتوم في ظنّ هذا الفريق من الإخوة : ﴿ والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾[1] ومن البيّن أنّنا بصدد قتلٍ ليوسف عليه السّلام بطريقٍ غير مباشر . والدّليل على أنّنا بصدد عمليّة قتلٍ ولكنّها بطريقٍ غير مباشر أنّ صاحب الرّأي الثّالث الذي يشكّل القسم الأخير ينهى عن الرّأيين معاً ، القتل المباشر وغير المباشر بالقول : « لا تقتلوا يوسف » وهذا القسم الثّاني جرى على لسانه القول : « اطرحوه أرضاً » .

القسم الثّالث الذي يتمثّل في أخٍ واحدٍ وضع الله تعالى في قلبه القدر الضّئيل من المحبّة ليوسف عليه السّلام والكمّيّة المحدودة جدّاً من الرّحمة ولهذا هو يعتبر الرّأيين السّابقين رأياً واحداً ينهى عنهما معاً من ناحيةٍ ، ويضع من ناحيةٍ أخرى البديل الذي يحقّق القدر المشترك المتّفق عليه بين الإخوة وهو التّخلّص من يوسف عليه السّلام كي يخلو لهم وجه أبيهم يعقوب عليه السّلام دون التّورّط في عمليّة القتل بطريقٍ مباشر أو بطريقٍ غير مباشر . هذا إلى تعيين الوسيلة الغالبة للذّهاب بيوسف عليه السّلام بعيداً وهي القافلة التي تأخذه معها حيث شاء الله تعالى لها أن تتّجه وتستقرّ . قال تعالى : ﴿ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

والحقيقة أنّ في الآيتين الكريمتين العديد من الأمور التي هي بحاجة إلى أن نشير إليها في إيجاز . وهي على النّحو التّالي :

١ ـ الفريقان من الإخوة اللّذان قرّرا قتل يوسف ، وهذا قتلٌ مباشر ، أو طرحه أرضاً بعيدةً مخوفة ، وهذا قتلٌ غير مباشر ، ليسوا شرّاً محضاً ويبدو ذلك من عدّة أمور :

(أ) إنّهما قبل قتل يوسف عليه السّلام أو طرحه أرضاً يفكّران في التّوبة إلى الله تعالى توبةً نصوحاً من الذّنب الذي ارتكباه في حقّ يوسف عليه السّلام : ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فأضمروا التّوبة قبل الذّنب[2] .

(ب) حينما نقارن بين رأي الفريق الأوّل وهو القتل المباشر ورأي الفريق الثّاني وهو

---

(١) سورة يوسف ٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٠ .

القتل غير المباشر نتبيّن أنّ التحوّل من رأيٍ إلى آخر يتّجه من الأسوأ إلى السّيّىء ، وليس العكس . ويؤكّد هذه الوجهة الرّأي الثّالث الذي يعتبر أخفّ الآراء الثّلاثة أذًى ، وهو إلقاء يوسف عليه السّلام في غيابة الجبّ .

(جـ) اتّفاق الإخوة العشرة سريعاً على الرّأي الثّالث أخفّ الآراء الثّلاثة ضرراً أو أقلّها أذًى .

(د) كلّ فريقٍ من هؤلاء الإخوة يكتفي بالاقتراح ويريد من الآخرين أن يتورّطوا في مهمّة التّنفيذ ! إنّ الفريق الأوّل يجيء على لسانه القول : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ وليس : لنقتل يوسف . وإنّ الفريق الثّاني يجيء على لسانه القول : ﴿ اطرحوه أرضاً ﴾ وليس : لنطرحه أرضاً . وإنّ الأخ النّاهي لإخوته التّسعة عن قتل يوسف عليه السّلام يجيء على لسانه القول : ﴿ ألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين ﴾ وليس : لنلقه في غيابة الجبّ .

واللّطيف في الأمر أنّ أصحاب الاقتراح بالقتل يتنازلون على الفور عن رأيهم ويرون رأي الفريق الآخر بطرح يوسف أرضاً وأنّ الفريقين معاً يتنازلان على الفور عن رأيهما الذي اتّفقا عليه أخيراً إلى الرّأي الثّالث والأخير أقلّ الآراء الثّلاثة ضرراً .

(هـ) في أثناء فورة طرح الاقتراحين الأوّلين لا ينسى أصحابهما الأب يعقوب عليه السّلام الذي سيخلو وجهه للإخوة بعد التّخلّص من يوسف عليه السّلام ، وكأنّ هذا القول : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ بمثابة السّبب في التّخلّص من يوسف عليه السّلام . وهم في حديثهم عن أبيهم يستعملون أشرف أجزاء الجسد وهو الوجه . وتعتبر هذه الأمور قوّةً لما ذهبنا إليه من كون الإخوة ليسوا شرّاً محضاً ، خاصّةً وأنّهم راغبون في العودة قوماً صالحين بالتّوبة النّصوح من الذّنب الذي سيرتكبونه في حقّ يوسف عليه السّلام .

٢ ـ يعتبر الأخ القائل بإلقاء يوسف في غيابة الجبّ أقرب الإخوة مودّةً ليوسف عليه السّلام ويبدو ذلك من عدّة أمور :

(أ) لا يرى هذا الأخ فرقاً في الجوهر بين الرّأي بقتل يوسف مباشرة والرّأي بطرحه أرضاً مخوفة ، أي بقتله في نظر هذا الأخ ولكن بطريقٍ غير مباشر . إنّ هذا الأخ يجعل الرّأيين قتلاً مع أنّ احتمال نجاة يوسف عليه السّلام بإرادة الله تعالى واردٌ رغم طرحه وحيداً أرضاً مخوفة . إنّ الأخ لا يجيء على لسانه ـ مثلاً ـ

القول : لا تطرحوا يوسف أرضاً وفي ذلك إهمالٌ للرّأي الآخر ، ولا يجيء على لسانه القول : لا تقتلوا يوسف ولا تطرحوه أرضاً ، ولكن يجيء على لسانه القول فقط : ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ وبذلك يرفع هذا الأخ مستوى الرّأي الآخر إلى مستوى الرّأي الأوّل في السّوء .

(ب) حينما نقارن بين القول هنا على لسان هذا الأخ القائل : ﴿ وألقوه في غيابة الجبّ ﴾ وبين ما جاء في الآية الكريمة الخامسة عشرة عن تنفيذ هذا الرّأي : ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ ﴾ نتبيّن أنّ عمليّة الإلقاء نظريّاً في القول على لسان هذا الأخ : « وألقوه » تحوّلت إلى مجرّد جَعْل ساعة التّنفيذ . وهذا دليلٌ آخر يؤكّد ما ذهبنا إليه من كون الإخوة ليسوا شرّاً محضاً بدليل أنّهم بشأن الرّأي الثّالث يتحوّلون من سوء التّنفيذ بإلقاء يوسف كيفما اتّفق في غيابة الجبّ إلى الرّفق في أثناء عمليّة التّنفيذ وذلك بجعل يوسف في غيابة الجبّ . وكأنّ هذا الأخ في صراعه الدّاخليّ بين عاطفته المندفعة مع إخوته وبين عقله الذي يحاول عقله وكبحه ومنعه من التّورّط في هذه الجريمة قد تنازعه عاطفته وعقله معاً فاستعمل جملة : « ألقوه » أمّا تنازع العاطفة فلقرب عمليّة إلقاء طفلٍ صغيرٍ في بئرٍ غير مطويّة من كونها عمليّة قتل . وأمّا تنازع العقل أو الحكمة فلأنّ عمليّة الإلقاء تجعل الفجوة غير كبيرة بين هذا الرّأي الثّالث وبين الرّأي الثّاني المتمثّل في عمليّة طرح يوسف أرضاً مخوفةً . إنّ هنالك طرحاً في أرضٍ مخوفة ، وإنّ هنا إلقاءً في جبّ . وبعد أن امتصّت جملة : « ألقوه » حماسة الأخوة ، إضافةً إلى قدرة هذه الجملة على التّنبيه إلى انسياق هذا الأخ مع العاطفة بأكثر من احتكامه إلى العقل ، ما لبث العقل أن أخذ زمام المبادرة مدفوعاً بالقدر الضّئيل من المحبّة ، وبالكميّة الضّروريّة من الرّحمة فكان القول : ﴿ يلتقطه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين ﴾ إنّ القول : ﴿ يلتقطه بعض السّيّارة ﴾ ومجيء الجبّ قبل ذلك معرّفاً : « الجبّ » يعني كلٌّ منهما أنّ هذا الأخ يتحدّث إلى إخوته عن بئرٍ غير مطويّة معروفةٍ لهم جميعاً تقع على طريقٍ مأهولٍ بالقوافل الذّاهبة والآيبة ، وفي موضعٍ تحتاج معه السّيّارة إلى الرّاحة بعد التّعب ، والأكل بعد الجوع ، والشّرب بعد العطش . وما معنى ورود القوافل الجبّ للحصول على مائه باستمرار ؟ معناه أنّ يوسف عليه السّلام لن يطول بقاؤه وحيداً في غيابة الجبّ

ولا يكتفي هذا الأخ بتبيين الأسباب التي تجعل عمليّة التخلّص مضمونةً ومأمونة ، مضمونة النّجاح ، ومأمونة العاقبة فلا شيء من أذًى ينال يوسف عليه السّلام ، إنّما يجيء على لسانه القول : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ويلاحظ أنّه لا يجيء على لسانه القول : إن كنّا فاعلين . وكأنّ صاحب هذا الرّأي يكتفي بالاقتراح ويريد من الآخرين أن يقوموا بعمليّة التّنفيذ . أليسوا هم الذين اكتفوا بشأن الرّأيين السّابقين بمجرّد الاقتراح طالبين من الآخرين أن يقوموا بعمليّة التّنفيذ ؟ بلى . إذن هو يكتفي مثلهم بطرح الاقتراح . ولهذا جاء بشأن الاقتراح الأوّل : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ وبشأن الاقتراح الثّاني القول : ﴿ اطرحوه أرضاً ﴾ وبشأن الاقتراح الثّالث : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ وكأنّ لسان حال هذا الأخ مستعدٌّ لإعادة النّظر في هذا الاقتراح الثّالث إن لم يكونوا مصمّمين على التّخلص من يوسف عليه السّلام .

ومن البيّن أنّ الإخوة العشرة جميعاً أجمعوا على هذا الرّأي الأخير وقرّروا التّخلّص من يوسف عليه السّلام ، وكأنّ هذا الأخ صاحب الاقتراح الأخير والذي كان مستعدّاً لأن ينسى تماماً فكرة التّخلّص من يوسف عليه السّلام ما لبث أن غيّر موقفه إلى الأسوأ ، وانساق مع إخوته تحت وطأة ما يُسَمّى بالعَقْل الجمعيّ ، بأن يندفع الإمّعَةُ مع الآخرين في حالتي الإحسان والإساءة على السّواء ، منجرفاً مع عاطفته ، والعاطفة هنا هي التي تمثّلت في حسد يوسف لحبّ والده له أكثر من حبّه لإخوته ، معطّلاً العقل الذي لو واصل حسن استعماله لانتهى به إلى الامتناع عن ارتكاب هذه الجريمة ، ذلك العقل الذي اقترح اقلّ الآراء ضرراً ، وفتح باب النّجاة بإذن الله تعالى بواسطة السّيّارة .

والحقيقة أنّ ثمّة دليلاً قويّاً يؤكّد أنّ الإخوة جميعاً اتفقوا أخيراً على مجرّد التّخلّص من يوسف عليه السّلام بواسطة إحدى القوافل دون أن يناله أدنى أذًى . وهذا الدّليل نمهّد له بالإشارة إلى مظهرٍ من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز في استعماله بعض الألفاظ استعمالاً خاصّاً به . إنّ هذا الكتاب العزيز يستعمل جملتي جاء وأتى استعمالاً عجيباً . إنّ جملة « جاء » لا تستعمل في القرآن الكريم إلّا دليلاً على القرب المكانيّ أو الزّمانيّ أو المعنويّ . وإنّ جملة « أتى » لا تستعمل في القرآن الكريم إلّا دليلاً على البعد المكانيّ أو الزّمانيّ أو المعنويّ . ويبدو ذلك ببساطة في كلّ استعمالات القرآن الكريم لهاتين الجملتين معاً في مناسبةٍ واحدةٍ . ونضرب المثال على ذلك بهذه الآية الكريمة من سورة الأعراف[1] :

(١) الآية ١٢٩ .

﴿ قالوا أوذينا من قبل أن يأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ إنّ جملة أتى تدلّ على الزّمن البعيد وإنّ جملة جاء تدلّ على الزّمن القريب . وإليك الآن الدّليل على إجماع الإخوة على التخلّص من يوسف عليه السّلام دون أن يناله أيّ أذى . إنّ الدّليل في الآية الكريمة التّاسعة عشرة من السّورة الكريمة التي تجيء فيها جملة جاء دليلاً على قرب السّيّارة من الجبّ وعلى عدم بقاء يوسف عليه السّلام في الجبّ فترةً طويلة . قال تعالى : ﴿ وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدْلى دلوه قال يا بُشْرَى هذا غلام ﴾ .

ومع أنّ هذا الأخ هو الذي اقترح الرّأي الذي حينما ينفّذ لا يلحق بيوسف عليه السّلام أدنى أذى بسببه فإنّا لا نعفيه من لوم مشاركة إخوته في عمليّة التّخلّص من يوسف عليه السّلام رغم أنّ هذا الأخ كان مستعدّاً لأن ينسى نهائيّاً عمليّة التّخلّص من يوسف عليه السّلام لو أنّه وجد في إخوته من يغرس بذرة الخير الموجودة في أعماقه . وقد شاء الله تعالى لحكمةٍ بالغة أن ينساق هذا الأخ مع إخوته وبذلك كان ثمّة إجماعٌ على جعل يوسف في غيابة الجبّ على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الخامسة عشرة والآية الكريمة الثّانية بعد المائة من السّورة الكريمة .

والحقيقة أن انجراف الأخ مع إخوته في هذه الجريمة يذكّرنا بثلاثة أبياتٍ في المعنى ذاته للشّاعر عمر بن أبي ربيعة . يقول[1] :

وخِلٍّ كنتُ عينَ النُّصح منه ... إذا نظرتْ ومستمعاً مطيعا[2]
أطاف بغيّةٍ فنهيت عنها ... وقلت له أرى أمراً شنيعا
أردت رشاده جُهْدي فلمّا ... أبَى وعَصَى أتيناها جميعا

ويبرز هنا سؤالٌ غايةٌ في الأهمّيّة وهو من هذا القائل الذي وضع الله تعالى في قلبه ليوسف هذا القدر الضّئيل من الودّ ؟ الجواب في الآية الكريمة الثّمانين من السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجيّا . قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرّطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ إنّه كبير الإخوة أو أكبرهم . ولا نعرف اسمه على وجه الدّقّة . ونودّ أن ننبّه بالذّات إلى هذا القول على لسان هذا الأخ الكبير مخاطباً إخوته : ﴿ ومن قبل ما فرّطتم في يوسف ﴾ إنّه لا يجيء على لسانه القول : ومن قبل ما فرطنا . وإنّ هذه الملاحظة تذكّرنا بالملاحظة ذاتها على الآراء الثّلاثة جميعاً .

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٢٤٨ بيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

(٢) في رواية : ومستمعاً سميعاً .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾

يرتع ويلعب : عن ابن عبّاس ، قوله : أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، يقول : يسع وينشط[1] قتادة : ينشط ويلهو[2] والرّتع أصله أكل البهائم ، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير[3] .

تصوّر الآيات الأربع الكريمات طبيعة الحوار الذي دار بين يعقوب عليه السّلام وبين إخوة يوسف عليه السّلام الذين قرّروا أخذه معهم لتنفيذ جريمتهم . ويلاحظ أنّ آيةً كريمةً واحدةً تتضمّن حديث يعقوب عليه السّلام ، في حين تتضمّن ثلاث آياتٍ كريماتٍ حديث الإخوة .

وبشأن الآية الكريمة الأولى نستطيع أن نشتمّ منها رائحة القول المشهور : كاد المريب أن يقول خذوني . إنّهم ، ردّ فعل لفرط حماستهم وشدّة حرصهم على تحقيق غايتهم الخسيسة ، يركبون كلّ شططٍ من القول بسؤال أبيهم يعقوب عليه السّلام في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ : يا أبانا ما الذي يمنعك أن تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون وصادقون ومخلصون له الودّ والنّصيحة . إنّهم غير صادقين في قولهم : « وإنّا له لناصحون » رغم توكيد الكلام بإنّ ولام التّوكيد . وإنّهم لا يخفى عليهم السّبب الذي من أجله لا يأمنهم يعقوب عليه السّلام على أخيهم يوسف عليه السّلام وهو داء الحسد . إنّهم على علمٍ بأنّ يعقوب عليه السّلام غير ملومٍ في عدم ائتمانهم على يوسف عليه السّلام ، ومع ذلك فإنّهم يستنكرون على أبيهم يعقوب عليه السّلام هذا الموقف مدلّين بكونهم إخوة له ، زاعمين نصحهم له ، نافذين من نقاء سريرة يعقوب عليه السّلام الذي ليس لديه بَعْدُ الدّليل

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٥ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رتع » ١٨٧ .

المحسوس على فساد طويّة هؤلاء الإخوة . إنّ يعقوب عليه السّلام الذي ليس لديه الدّليل الملموس الذي يحمله على عدم ائتمان الإخوة على أخيهم ، وإنّ يعقوب عليه السّلام الذي لا يقول لسانه إلّا الحقّ ، ولا يتفوّه فمه إلّا بالصّدق الذي في قلبه ، لا يمهله الإخوة كي يردّ على سؤالهم ، إنّما يبادرون إلى طلب يوسف عليه السّلام أن يصحبهم في اليوم التّالي في فسحتهم وكان ذلك في الآية الكريمة التّالية .

إنّ الإخوة يطلبون أباهم في ثقةٍ أن يرسل معهم أخاهم يوسف غداً كي يرتع ويلعب ، يفرح ويمرح ، يلهو وينشط . مؤكّدين ليعقوب عليه السّلام حفظهم له ورعايتهم إيّاه وعنايتهم به . وكما كان الإخوة غير صادقين فيما جاء على لسانهم : « وإنّا له لناصحون » هم غير صادقين كذلك فيما يجيء الآن على لسانهم : « وإنّا له لحافظون » .

وفي الآية الكريمة الثّالثة يعبّر يعقوب عليه السّلام بصدقٍ عن السّببين وراء حرصه عليه السّلام أن يبقى يوسف الابن الحبيب أمام عينيه . أمّا السّبب الأوّل فذاتيّ : « قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به » وأمّا السّبب الآخر فخارجيّ : « وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون » .

إنّ يعقوب عليه السّلام في القول : « إنّي ليحزنني أن تذهبوا به » يعبّر في صدقٍ عنّ الحزن الذي يتمكّن منه ويملأ عليه جوانب نفسه لمجرّد ذهاب الإخوة بيوسف واصطحابهم له . والمعروف أن الحزن شعورٌ بالألم العميق ، متعلّقٌ بالماضي ، لفقد حبيب ، وغياب عزيز . إنّ مجرّد ذهاب الإخوة بيوسف عليه السّلام يسبّب ليعقوب عليه السّلام حزناً عميقاً . وانظر إلى التّوكيدين في القول : « إنّي ليحزنني » ومن البيّن أنّ يعقوب عليه السّلام في جوابه الصّادق قد ضرب بعنفٍ على وتر الحسد ليوسف لدى إخوته فزاد ناره اشتعالاً ولهيبه استعاراً دون قصدٍ منه لذلك ، بل ـ ربّما ـ دون علم منه بذلك .

وكما كان يعقوب عليه السّلام صادقاً في السّبب الذّاتيّ ولا يكون النّبيّ ﷺ إلّا صادقاً ولا يقول إلّا حقّاً ، كان يعقوب عليه السّلام صادقاً في السّبب الخارجيّ : « وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون » إنّ يعقوب عليه السّلام الصّادق القول الأمين يعبّر صراحةً عن خوفه على يوسف عليه السّلام أن يأكله الذّئب ، في المنطقة التي سيذهب إليها الإخوة ، وهي منطقةٌ مليئةٌ بالذّئاب ، وهم عنه غافلون في نشاطهم وجريهم ولعبهم . إنّه لأمرٌ طبيعيّ ألّا يستطيع طفلٌ صغيرٌ مجاراة عصبةٍ من الرّجال في نشاطهم ولعبهم ومرحهم ، وإنّه لأمرٌ طبيعيّ في مثل هذا الجوّ المشحون بالنّشاط أن يبتعد الإخوة عن أخيهم الذي سيكون بالضرورة قابعاً حيث أوعية الإخوة أو حائماً حول ذلك الموضع . وفي كلتا الحالين هو محطّ خوفٍ عليه من

الذّئاب المنتشرة في ذلك الموضع ، المعروفة بخبثها وغدرها . إنّ ذئباً واحداً لو صادف الطّفل البريء يوسف عليه السّلام وحيداً سيجعل منه أكلةً لذيذةً ووجبةً شهيّة فكيف لو صادف الطفل البريءَ قطيعٌ من الذّئاب ! وما أبلغ جملة يأكل في هذه المناسبة وذلك في القول : « وأخاف أن يأكله الذّئب » لقدرة جملة يأكل على الدّلالة من ناحية على عدم إبداء يوسف عليه السّلام أدنى مقاومة فهو بمثابة الطّبق الشّهيّ للذّئاب ، وعلى الدّلالة من ناحيةٍ أخرى على حرص الذّئب أو الذّئاب على أكل تلك الوجبة الشّهيّة أكلاً سريعاً هنيئاً مريئاً . إنّ جملة يأكل هي التي تأتي تأكيداً لسلبية المقاومة من جانب يوسف عليه السّلام وليس أيّ جملة أخرى تفيد شيئاً من هذه المقاومة مثل جملة يفترس أو يفتك وما شاكلهما .

وفي الآية الكريمة الرّابعة يتجاوز الإخوة حزن يعقوب عليه السّلام لمجرّد ذهابهم بيوسف عليه السّلام وقد أضمروا التّخلّص من يوسف دون أدنى تفكير في حال أبيهم يعقوب عليه السّلام ومآله ، إلى الحديث في السّبب الخارجيّ . إنّهم في أسلوب القسم المؤكّد يقولون : إنْ أكل الذّئب يوسف وهم عصبةٌ من الرّجال تُعْصَبُ بهم الأمور وتُناط المهمّات إنّهم إذاً لخاسرون .

وأذن يعقوب عليه السّلام لإخوة يوسف أن يأخذوه معهم ، ولم يرد عليه السّلام أن يرفض طلب الإخوة كيلا يكون ذلك سبباً في زيادة حسد الإخوة ليوسف .

وإنّ إذن يعقوب عليه السّلام للإخوة أن يأخذوا معهم يوسف أحبّ أبنائه إليه دون أن ينبس ببنت شفة وراء تبيين حزنه لذهاب يوسف معهم وخوفه عليه أن يأكله الذّئب يذكّرنا بالموقف الآخر ليعقوب عليه السّلام من الإخوة حينما طلبوا منه عليه السّلام أن يرسل معهم بنيامين شقيق يوسف لأمّه بناءً على طلب عزيز مصر . جاء في الآية الكريمة السّادسة والسّتّين قول الحقّ جلّ وعلا على لسان يعقوب عليه السّلام : ﴿ قال لن أرسله معكم حتّى تؤتونِ مَوْثِقاً من الله لتأْتُنّني به إلّا أن يحاط لكم . فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ .

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

استطاع الإخوة أن يقنعوا يعقوب عليه السّلام أن يأذن لهم بأخذ يوسف عليه السّلام كي يرتع ويلعب حسب زعمهم . وتبيّن الآية الكريمة أنّ الإخوة لمّا ذهبوا بيوسف عليه

السّلام وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ فعلوا به ما فعلوا من الأذى[1] وقد تبيّنا إجماع الإخوة على جعل يوسف عليه السّلام في الجبّ . وتكاد تكون هذه المسألة هي الوحيدة في السّورة التي حصل إجماعٌ بشأنها . كما تبيّنا أنّ عمليّة الإلقاء في الجبّ المتّفق عليها تحوّلت وقت التّنفيذ جَعْلاً . ونستطيع أن نفهم أنّ الجعل في غيابة الجبّ إنّما يكون برفقٍ وإن لم يكن بلطف .

وحينما كان يوسف الطفل الصّغير في غيابة الجبّ وحيداً بمقياس البشر كان الله تعالى مع يوسف عليه السّلام ، كما كان جلّ وعلا معه في كلّ ورطة . وقد أوحى الله تعالى ليوسف عليه السّلام وحي إلهام[2] بأنّه عليه السّلام سينبّئهم بأمرهم هذا وبخطئهم الشّنيع في حقّه وهم لا يشعرون بذلك الإلهام والاطمئنان ، ولا بتلك السّكينة التي أنزلها الله تعالى على يوسف عليه السّلام .

والحقيقة أنّ رحمة الله الواسعة شملت يوسف عليه السّلام ، وكلّما كان عليه السّلام في ورطة تداركته رحمة أرحم الرّاحمين ، ومنها غيابة الجبّ التي أنقذه الله تعالى منها وأوحى إليه ما أنزل السّكينة عليه في أثنائها .

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

إنّا ذهبنا نستبق : ننتضل من السّباق[3] ونترامى[4] .

بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً : بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف وحسّنته ففعلتموه[5] .

---

(١) الكشّاف ٢/١٢٧ .

(٢) البحر المحيط ٥/٢٨٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٤٧١ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٨ .

والله المستعان على ما تصفون : والله المطلوب منه العون[1] على ما تذكرون من الكذب والمحال[2] وعلى ما تكذبون[3] .

جعل الإخوة يوسف في غيابة الجبّ ، ربّما بحيلة الاستعانة به بأن ينزلوه إلى الجبّ كي يملأ لهم ماءً ، وهناك تركوه بعد أن أخذوا قميصه ولطّخوه بدم سَخْلةٍ[4] ذبحوها فيما ذكره مجاهد والسّدّي وغير واحد[5] ونستطيع أن نفهم أنّ الإخوة أنهوا مهمّتهم القذرة أوّل النّهار ، وأنّهم قضوا نهارهم بعد التّخلص من يوسف فرحين مستبشرين راتعين لاعبين متسابقين ، وأنّهم قرّروا ألّا يعودوا إلى أبيهم حاملين معهم النّبأ الجلل ، وقميص يوسف الّذي جاءوا به وعليه الدّم الكذب ، زاعمين أنّ الذّئب أكله ، إلّا في ظلام اللّيل الدّامس المسعف لهم على إخفاء ملامحهم المتظاهرة بالكآبة ، مستعينين برفع أصواتهم بالبكاء . ونستطيع أن نفهم كذلك أنّ الإخوة قبل أن يجيئوا أباهم باكين كان يوسف قد حملته القافلة المتّجهة إلى مصر معها ، وذلك معناه أنّ الإخوة لا يملكون سوى مواصلة الزّعم أنّ الذّئب أكل يوسف والبكاء المفتعل بصوتٍ عال .

إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن أنّ الإخوة جاءوا أباهم يعقوب عليه السّلام يبكون ، موطّئين بأصواتهم العالية للنّبأ الجلل الذي لا يكاد يحتمله يعقوب عليه السّلام ولا يكاد يصدّقه . ويلاحظ مجيء جملة جاء التي قلنا إنّها تدلّ على القرب ، وهي في القول : « وجاءوا أباهم عشاءً يبكون » تنبّه إلى أنّ الإخوة حينما كانوا جدّ قريبين من يعقوب عليه السّلام انفجروا معاً باكين ، وكأنّهم اتّفقوا على الانفجار باكين في مكانٍ بعينه قريبٍ من يعقوب عليه السّلام وذلك على غرار اتّفاقهم على جعل يوسف عليه السّلام في الجبّ .

وبعد أن وطّأ الإخوة للنّبأ الجلل بالانفجار باكين على نحو ما تبيّن من الآية الكريمة الأولى ، لخّص الإخوة ما جرى ليوسف عليه السّلام من أكل الذّئب له بسبب غفلتهم عنه كما يبدو من الآية الكريمة الثانية . إنّ الإخوة ينادون أباهم بصوتٍ يغلبه البكاء ويقولون إنّهم ذهبوا يستبقون ويترامون ويتناضلون وهم العصبة من الرّجال ، وأنّهم تركوا يوسف عليه السّلام

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٩ .
(٤) السّخلة : ولد الشّاة . وقيل إنّهم ذبحوا جدياً . تفسير الطّبريّ ١٢/٩٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٤٧١ .

لصغر سنّه وعدم قدرته على مجاراتهم في ألعابهم الرّجوليّة عند متاعهم وثيابهم[1] فخلا به الذّئب في تلك المنطقة النّائية المليئة بالذّئاب والتي يعرفها يعقوب عليه السّلام جيّداً وحذّرهم من ذئابها الفتّاكة ، فأكل الذّئب الطفل الصّغير غير ذي الحيلة والقدرة على المقاومة أكلاً ذريعاً وجعل منه وجبةً لذيذةً وطبقاً شهيّاً . إنّك يا أبانا لست بمصدّق لنا فيما نقول لك الآن مع أنّنا صادقون في كلّ حرفٍ نقول ولكن ما العمل وأنت دائماً سيّء الظّنّ بنا بشأن أخينا الحبيب يوسف !

ونستطيع أن نفهم أنّ الإخوة فكّروا مليّاً في سبب قتل يوسف أو موته غير ما جرى على لسان يعقوب عليه السّلام من خوف أكل الذّئب له فلم يجدوا سوى السّبب الذي ذكره يعقوب عليه السّلام النّبيّ الملهم والأب الحنون الشّفيق . والمعروف أنّ الشّفيق دائماً بسوء ظنٍّ مولع ، والمعروف كذلك أنّ النّفس المرهفة بالأحاسيس المفعمة بالمشاعر ، والعقل الرّاجح والفكر الرّاشد ، يصلان في العادة إلى أسبابٍ وجيهةٍ ونتائج حاسمة منذ الوهلة الأولى ، وذلك على غرار خوف يعقوب عليه السّلام منذ الوهلة الأولى على يوسف عليه السّلام من أكل الذّئب له لأنّ يوسف طفلٌ صغيرٌ بريء يُخْشَى عليه من ترك إخوته له وحيداً في أثناء لعبهم وهم الشّبان ، فيخلو به ذئبٌ واحدٌ أو أكثر من ذئبٍ في تلك المنطقة المليئة بالذّئاب التي من طبيعتها الغدر فيكون يوسف أكلةً شهيّةً للذّئب الواحد أو المجموعة من الذّئاب . إنّ الإخوة أطالوا التّفكير والبحث عن وسيلةٍ يتذرّعون بها غير الذّئب فلم يجدوا سوى السّبب الذي جرى على لسان يعقوب عليه السّلام النّبيّ الملهم والأب الحنون الذي يعتبر رمزاً للآباء في حنانهم وعطفهم على أولادهم وحبّهم لهم . إنّ الإخوة حينما يزعمون أنّ الذّئب هو الذي أكل يوسف يستطيعون أن يجيئوا دليلاً على أكل الذّئب له بقميصه الذي عليه الدّم الكذب دون الحاجة للاستعانة بأيّ شيءٍ آخر سوى دم يوسف عليه السّلام الذي زعموا أنّه هو الذي لطّخ قميصه . إنّهم ليسوا بحاجةٍ إلى الاستعانة بأيّ شيءٍ من لحم فقد أكله كلّه الذّئب أو مجموعة الذّئاب ، ويلحق باللّحم العظم ! إنّنا حينما نفكّر في أيّ وسيلةٍ أخرى نجدها دون وسيلة أكل الذّئب يوسف التي تكتفي وحدها بالدّم دليلاً على أكل الذّئب يوسف . أليست تلك المنطقة مكتظّةً بالذّئاب المفترسة بأكثر من أيّ حيوانٍ آخر مفترس ؟ بلى . إذن فليلجأ الإخوة إلى السّبب الخارجيّ الذي جرى على لسان يعقوب عليه السّلام وهو خوفه أن يأكل الذّئب يوسف وإخوته عنه غافلون .

وماذا كان ردّ يعقوب عليه السّلام على أبنائه الذين قدّموا له قميص يوسف الملطّخ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٧١ .

بالدّم على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الثّالثة ؟ ردّ يعقوب عليه السّلام قولـيّ وذو ثلاث شعب تتعلّق بالإخوة ، وبموقفه عند الصّدمة الأولى ، وبفراره إلى أحكم الحاكمين .

أمّا يتعلّق بالإخوة فالقول : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً » والمعنى بل زيّنت لكم أنفسكم الأمّارة بالسّوء أمراً قبيحاً فرأيتموه حسناً مليحاً[1] بكيدٍ من الشّيطان الرّجيم وإغواءٍ لكم .

وأما ما يتعلّق بموقف يعقوب عليه السّلام عند الصّدمة الأولى فالقول : « فصبرٌ جميل » والمعنى : فأمري أو حالي أو شأني صبرٌ جميل . وعليه فصبر خبر لمبتدأ محذوفٍ وجوباً[2] أمّا الصّبر الجميل فهو الذي ليس فيه سوى اللّجوء إلى الله تعالى الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء وينشر رحمته . إنّ يعقوب عليه السّلام نبيّ الله تعالى الذي يبتليه الله تعالى بفقد أحبّ أبنائه إليه لا ينبس ببنت شفة وراء القول لأبنائه : ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً ﴾ إنّما هنالك الصّبر الجميل ، واللّجوء إلى الله تعالى . وإنّما لم يصدّق يعقوب عليه السّلام أبناءه لأنّه وهو النّبيّ الملهم الذي ينظر بنور الله تعالى كان يتوسّم في يوسف عليه السّلام الخير الكثير الذي أكّدته رؤيا يوسف عليه السّلام . وقد جاء على لسانه عليه السّلام القول في الآية الكريمة السّادسة خطاباً ليوسف عليه السّلام : ﴿ وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق . إنّ ربّك عليمٌ حكيم ﴾ والدّليل على أنّ يعقوب عليه السّلام لم يصدّق أبناءه هو تلك الآية الكريمة الثّالثة والثّمانون التي تشبه إلى حدٍّ كبير الآية الكريمة التي نحن بصددها والتي يعبّر فيها يعقوب عليه السّلام عن رجائه في الله تعالى أن يأتيه بأبنائه الثّلاثة الغائبين جميعاً يوسف وبنيامين وأخيهما الكبير . قال تعالى : ﴿ قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم ﴾ .

وأمّا ما يتعلق بفراره إلى أحكم الحاكمين فالقول : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ والمعنى : والله تعالى هو الذي أستعين به على ما تصفون من حال يوسف وتذكرون من كذبٍ في شأنه . والدّليل على أنّ جملة تصفون تتضمّن الاتّهام بالكذب الآية الكريمة السّابعة والسّبعون التي يجيء فيها القول ذاته على لسان يوسف عليه السّلام هذه المرّة . قال تعالى :

---

(١) درسنا جملة « سوّل » في كتابنا تأمّلات في سورة محمّد ﷺ ٢٢٧ ـ ٢٢٩ الطّبعة الثّانية ١٤١٣هـ ١٩٩٣م مكّة المكرّمة .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٣٤٥ .

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ .

وإنّه بالمقارنة بين القول على لسان يعقوب عليه السّلام في نهاية هذه الآية الكريمة : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ وبين القول على لسانه عليه الصّلاة السّلام في نهاية الآية الكريمة الثّالثة والثّمانين : ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم ﴾ يتبيّن أنّ يعقوب عليه السّلام حينما كان دليله مقصوراً على إحساسه بكذب الإخوة كان منه الفرار إلى أحكم الحاكمين الذي وسعت رحمته كلّ شيء : « والله المستعان على ما تصفون » ولا يخفى اتّهام يعقوب عليه السّلام أبناءه بالكذب في أسلوبه العفّ الكريم ، كما يتبيّن أنّ يعقوب عليه السّلام حينما تأكّد دليله السّابق بأن عاد الإخوة من مصر وليس معهم شقيق يوسف بنيامين وليس معهم أخوهم الكبير جاء على لسانه القول الذي فيه كبير اتّهام للإخوة بدليل سكوتهم التّامّ وذلك في القول : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً . إنّه هو العليم الحكيم » وقد عرفنا أنّ الأخ الكبير انشقّ على إخوته وبقي في مصر تعبيراً عن سخطه عليهم لتفريطهم هم في يوسف من قبل ، وعن تعاطفه غير ذي الحدود مع والده نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام الذي كادت آنذاك تبيضّ عيناه من الحزن لفراق ابنه الحبيب يوسف عليه السّلام .

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

وجاءت سيّارة : وجاءت مارّة الطّريق من المسافرين[1] والسّيّارة : الجماعة[2] وهم مسافرون من مدين إلى مصر[3] .

فأرسلوا واردهم : الذي يرد الماء ليستقي منه[4] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٩٩ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سار » ٢٤٧ .

(٣) الجلالين .

(٤) الجلالين .

فأدلى دلوه : فأرسل دلوه في البئر . يقال : أدليت الدّلو في البئر إذا أرسلتها فيها ، فإذا استقيت فيها قلت : دلوت أدلو دلواً[١] .

هذا غلام : الغلام الطّارّ الشّارب ، يقال غلامٌ بيّن الغُلومة والغلوميّة . واغتلم الغلام إذا بلغ حدّ الغلومة[٢] .

وأسرّوه بضاعة : أخفوا أمره جاعليه بضاعة[٣] .

وشروه : وباعوه[٤] .

بثمنٍ بخسٍ : ناقص[٥] قليل[٦] قال مجاهد وعكرمة : والبخس هو النّقص كما قال تعالى : فلا يخاف بخساً ولا رهقاً[٧] وهو مصدر من قول القائل : بخست فلاناً حقّه إذا ظلمته . يعني ظلمه فنقصه عمّا يجب له من الوفاء أبخسه بخساً . ومنه قوله : ولا تبخسوا النّاس أشياءهم . وإنّما أريد بثمنٍ مبخوسٍ منقوص . فوضع البخس وهو مصدر مكان مفعول كما قيل : بدمٍ كذبٍ وإنما هو بدمٍ مكذوبٍ فيه[٨] .

دراهم معدودة : الدّرهم : الفضّة المطبوعة المتعامل بها[٩] وكانت عادتهم أنّهم لا يَزِنون إلّا ما بلغ أوقيّةً وهي أربعون درهماً لأنّ الكثيرة يعسر فيها العدّ بخلاف القليلة[١٠] فمعنى معدودة : غير موزونة[١١] .

وكانوا فيه من الزّاهدين : أي ليس لهم رغبةٌ فيه بل لو سئلوه بلا شيءٍ لأجابوا[١٢] .

عرفنا أنّ جملة جاء تُسْتَعْمل في القرآن الكريم في الدّلالة على القرب ، وهذا ما نفهمه

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٩/١٢ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « غلم » ٢٦٤ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٢/١٢ وتفسير ابن كثير ٤٧٢/٢ .
(٥) الجلالين .
(٦) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٢ .
(٧) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٢ .
(٨) تفسير الطّبريّ ١٠٢/١٢ .
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « درهم » ١٦٨ .
(١٠) البحر المحيط ٢٩١/٥ .
(١١) تفسير الطّبريّ ١٠٣/١٢ .
(١٢) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٢ .

من مجيء الجملة في أوّل الآية الكريمة الأولى . إنّ السّيّارة جاءت بعد مغادرة الإخوة ، وإنّ القافلة وصلت إلى مكان الجبّ فور ترك الإخوة يوسف في غيابة الجب وترك المكان . إنّ السّيّارة جاءت فأرسلوا واردهم الذي يطلب لهم الماء من الجبّ فأدلى دلوه . وقد جرت عادة الذي يرسل دلوه في بئرٍ أو جبّ أن يتبع الدّلو ببصره كي تصيب الدّلو الماء مباشرةً دون أن تصطدم بمحيط الجبّ بخاصّةٍ كيلا تسقط الدّلو معها أشياء غير مرغوبٍ فيها من الحائط غير المطويّ بالحجارة . يضاف إلى ذلك أنّ يوسف عليه السّلام تركه إخوته في غيابة الجبّ التي نظنّ أنّها عبارة عن جزءٍ ناتيءٍ لا يغمره الماء في موضعٍ من الجبّ يكاد يغيب عن عين النّاظر لدنوّه من الحائط . إنّ الوارد أدلى دلوه ، وأرسل مع الدّلو بصره فكان من يوسف عليه السّلام حركةٌ صرفت عين الوارد إليه . ولمّا كان الجبّ كما يبدو من اسمه محفوراً في جُبوب أي في أرضٍ غليظةٍ تتيح للغيابة أن توجد وللنّتوءات أن تبرز بسبب تفاوت طبقات الجبّ في القسوة ، ولمّا كان الجبّ في الأماكن الخصبة كأرض فلسطين غير عميق الغور ، فقد أتاحت الغيابة ليوسف أن يبقى حيث وضعه إخوته بمأمنٍ من الغرق في الماء من ناحية ، ومن ناحيةٍ أخرى أتاحت طبيعة الجبّ هنالك للهواء أن يكون متجدّداً ، وللنّور أن يكون متسلّلاً ممّا سهّل على عين الوارد المهمّة فانصرف البصر عن الدّلو إلى الغلام يوسف ، وهنالك انفجر الوارد مبتهجاً قائلاً : يا بُشرى هذا أوانك فاحضري فقد وجدت في الجبّ غلاماً سنبيعه في أوّل سوق وسيكون ثمنه كسباً لأنّا لم ندفع في الحصول عليه مقابلاً . إنّ عين الوارد منذ أن وقعت على يوسف قال « هذا غلام » وذلك دليلٌ على ما قلنا من تسلّل كلٍّ من الهواء والنّور إلى الجبّ مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى بالغلام يوسف . والمعروف أنّ لفظ الغلام في اللّغة العربيّة يطلق حقيقةً على من كانت سنّه بين الحولين إلى البلوغ ، وقد يطلق على الرّجل الكامل[1] ونستطيع أن نفهم أنّ يوسف عليه السّلام كان آنذاك دون سنّ البلوغ من ناحيةٍ وفوق سنّ التّمييز من ناحيةٍ أخرى ، ونظنّ أنّه فوق سنّ العاشرة ، ودليلنا على ذلك أنّه عليه الصّلاة السّلام حينما بيع عبداً في مصر وعاش في بيت عزيز مصر المترف وفي المجتمع المصريّ المشرك آنذاك كان يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، دليلاً على أنّه عليه الصّلاة السّلام كان قد استوعب تعاليم الإسلام التي يمارسها أبوه يعقوب عليه السّلام . إنّ وضع الإخوة يوسف في غيابة الجبّ بعد أن امتلأت نفسه بين جنبيه بتعاليم الإسلام مظهرٌ من مظاهر رحمة الله تعالى بيوسف عليه السّلام وبيعقوب عليه السّلام وآله . وإنّ امتلاء نفس

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٩٠ .

يوسف عليه السّلام بين جنبيه بتعاليم الإسلام منذ نعومة الأظفار درسٌ قرآنيٌّ لنا نحن المسلمين بأن ننشىء أطفالنا تنشئةً إسلاميّةً منذ نعومة أظفارهم تهيئةً لهم كي يقاوموا ويقهروا بإذن الله تعالى قوى الشّرّ التي تحاول أن تتخطّفنا نحن المسلمين من كلّ جانب .

وعاد الوارد بالغلام يوسف إلى السّيّارة ، وأخفوا يوسف عليه السّلام وجعلوه بضاعةً يبيعونها في أوّل سوقٍ تصادفهم . والله سبحانه وتعالى عليمٌ بما يعمل أفراد القافلة .

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ السّيّارة باعوا الغلام يوسف في أوّل سوقٍ صادفتهم ، ولمّا كانت مصر وجهتهم فقد باعوه في سوقها بثمنٍ مبخوسٍ منقوص ، دراهم من فضّة وليس دنانير من ذهب ، معدودة لقلّتها وليست موزونةً لكثرتها ، وكانوا فيه من الزّاهدين الذين ليس لهم رغبةٌ فيه ، ومن الحريصين على التّخلّص منه وقبول أدنى ثمنٍ يدفع فيه .

« يوسف عليه السّلام في بيت العزيز
وتجربته عليه السّلام المريرة
مع امرأة العزيز »
الآيات (٢١ ـ ٣٥)

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

أكرمي مثواه : أكرمي موضع مقامه وذلك حيث يثوى ويقيم فيه . يقال : ثوى فلانٌ بمكان كذا إذا أقام فيه[1] .

والله غالبٌ على أمره : أي إذا أراد شيئاً فلا يردّ ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه . قال سعيد بن جبير في قوله : والله غالبٌ على أمره ، أي فعّالٌ لما يشاء[2] .

باعت السّيّارة يوسف الغلام المملوك في أوّل سوقٍ صادفت . ولا نعرف أنّ الذي اشترى يوسف عليه السّلام هو عزيز مصر أي رئيس وزرائها إلّا في الآية الكريمة الثّلاثين على لسان نسوة المدينة . قال تعالى : ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً إنّا لنراها في ضلالٍ مبين ﴾ وإنّ في عدم معرفتنا أنّ الذي اشترى يوسف هو عزيزها حتّى الآية الكريمة الثّلاثين درساً قرآنيّاً عظيماً في عدم الكشف عن العورات . إنّ الذي اشترى يوسف من مصر قال لامرأته أكرمي مكان إقامة يوسف فكيف بإكرام يوسف ذاته في بيت عزيز مصر ورئيس وزرائها المترف في المجتمع غير المفرد لله تعالى بالعبادة .

ويبني العزيز على أمره زوجه بإكرام الغلام يوسف عليه السّلام إكراماً فائقاً رجاءين اثنين ، يُبْني آخرهما على أوّلهما . أمّا الرّجاء الأوّل فهو أن ينفعهما يوسف عليه السّلام حينما تتقدّم بهما السّنّ ويحتاجان لنفع شخصٍ مأمونٍ قدّما له إحساناً سابقاً . وأمّا الرّجاء الآخر فهو أن يكون ثمّة تجاوز لمرحلة الرّجاء الأوّل المتمثّل في النّفع إلى مرحلةٍ أبعد بأن يتّخذا يوسف عليه السّلام بمثابة الولد وهما الزّوجان اللّذان ليس لديهما الذّرّيّة ولا ينجبان .

وتقرّر الآية الكريمة أنّه كما نجّى الله تعالى يوسف عليه السّلام من غيابة الجبّ مكّن له في أرض مصر عن طريق عزيزها هذه المرّة ، وسنعرف مستقبلاً من الآية الكريمة السّادسة والخمسين أنّ التّمكين الآخر الأكبر من الله تعالى ليوسف عليه السّلام في أرض مصر كان

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٠٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٣ .

عن طريق ملكها . وكان التّمكين من الله تعالى ليوسف عليه السّلام في الأرض تمهيداً لتعليم الله تعالى له من تأويل الأحاديث وتعبير الرّؤى ، فقد كان عليه السّلام أعبر النّاس للرّؤى . وتقرّر الآية الكريمة في التّذييل أنّ الله سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون . وقد أراد الله تعالى الخير ليوسف وأراد إخواته هلاكه فغلب أمر الله تعالى ولكنّ أكثر النّاس ، ومنهم إخوة يوسف ، لا يعلمون أنّ الله تعالى يأمر ، وأنّ الله تعالى غالبٌ على أمره فعّالٌ لما يريد .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

ولمّا بلغ أشدّه : ولمّا بلغ منتهى شدّته وقوّته في شبابه وحدّه[1] قال الإمام مالك وربيعة بن زيد بن أسلم والشّعبيّ : الأشدّ الحُلُم[2] .

وجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة عن يوسف عليه السّلام وبين هذه الآية الكريمة عن موسى عليه السّلام في سورة القصص[3] قال تعالى : ﴿ ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ويتركّز الاختلاف بين الآيتين الكريمتين في هذه الزّيادة : « واستوى » لحاجة موسى عليه السّلام مستقبلاً لاستعمال قوّته حينما وكز الذي من عدوّه فقضى عليه في الحال . إنّ يوسف عليه السّلام لم يكن بحاجةٍ إلى هذه القوّة العضليّة . والآية الكريمة تقرّر أنّ يوسف عليه السّلام لمّا بلغ أشدّه وبلغ مبلغ الرّجال وتجاوز مرحلة بلوغ الحلم بسلام في ذلك المجتمع المتفسّخ والمحيط المترف آتاه الله تعالى من لدنه حكمةً بالغةً وعلماً لدنيّاً . إنّ ربّ العزّة كما جازى يوسف عليه السّلام حكمةً وعلماً مقابل بلوغه درجة الإحسان بالمعنى الذي بيّنه الحديث الشّريف بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[4] يجزي المحسنين في كلّ زمانٍ ومكانٍ . وبذلك نكون نحن المسلمين أمام درسٍ عظيمٍ من دروس القرآن الكريم في مراقبة الله تعالى في السّرّ والعلن .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٠٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٣ .
(٣) الآيــة ١٤ .
(٤) صحيح البخاريّ ١/٢٠ .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه : الرّاء والواو والدّال مُعْظَم بابه يدلّ على مجيءٍ وذَهابٍ من انطلاقٍ في جهةٍ واحدة . تقول : راودته على أن يفعل كذا ، إذا أردته على فعله[1] والرَّوْد التّردّد في طلب الشّيء برفق . يقال : راد وارتاد ، ومنه الرّائد لطالب الكلأ . والإرادة منقولةٌ من راد يرود إذا سعى في طلب شيء . والإرادة في الأصل قوّةٌ مركّبةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأمل . وجُعِل اسماً لنزوع النّفس إلى الشّيء مع الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يُفْعَل أو لا يُفْعَل . والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد ، أو ترود غير ما يرود . وراودت فلاناً عن كذا . قال هي راودتني عن نفسي ، وقال : تراود فتاها عن نفسه ، أي تصرفه عن رأيه . وعلى ذلك قوله : ولقد راودته عن نفسه ، سنراوِد عنه أباه[2] والمراودة المطالبة برفق من راد يرود إذا ذهب وجاء وهي مفاعلة من واحد نحو داويت المريض[3] .

وقالت هيت لك : هَيْتَ قريبٌ من هَلُمَّ[4] هيت لك : بفتح الهاء والتّاء بمعنى هلمّ لك وادن وتقرّب[5] عن ابن عبّاس : هيت لك قال : هلمّ لك[6] .

قال معاذ الله : أعوذ بالله من ذلك[7] وأعتصم بالله من الذي تدعوني إليه وأستجير به منه[8] والعَوْذُ الالتجاء إلى الغير والتّعلّقُ به ، ومنه قوله تعالى : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . وقوله : مَعاذ الله ، أي نلتجيء إليه ونستنصر به أن نفعل ذلك فإنّ ذلك سوءٌ نتحاشى من تعاطيه[9] .

---

(١) معجم مقاييس اللّغة : « رود » ٤٥٧/٢ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رود » ٢٠٦ و ٢٠٧ .
(٣) البحر المحيط ٢٩٣/٥ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « هيت » ٥٤٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٦/١٢ .
(٦) تفسير الطّبريّ ١٠٦/١٢ .
(٧) الجلالين .
(٨) تفسير الطّبريّ ١٠٨/١٢ .
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عوذ » ٣٥٢ .

إنّه ربّي : يقول : إنّ صاحبك وزوجك سيّدي[1] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ امرأة الذي اشترى يوسف من مصر راودت يوسف عليه السّلام عن نفسه ، واجتهدت في صرفه عن رأيه ، ونازعته في إرادته المغايرة لإرادتها ، فأرادت منه غير ما يريد ، وتابعت طلب ما تريد منه في رفقٍ وتؤدة ، وألحّت في الطّلب ، وخادعته ، وصمّمت على ما تريد ، وغلّقت الأبواب ، وأحكمت إغلاقها ، وقالت بصريح اللّفظ هلمّ وادن وتقرّب[2] وإذا كان يوسف عليه السّلام قد قابل المراودة بالإعراض والتّجاهل ، فإنّه قابل الدّعوة الصّريحة بالاستعاذة الصّريحة بالله ربّ العالمين ، وذكّر الزّوجة بأنّ ذلك الذي تريد من يوسف أن يخونه في أهله هو سيّده عزيز مصر الذي أحسن مثواه وأكرم وفادته . إنّه إن استجاب لها فإنّه يكون آنذاك من الظّالمين الذين قابلوا الإحسان بالإساءة في حقّ العزيز ، ومن الظّالمين لأنفسهم لأنّهم بذلك يوردونها مهاوي الرّدى . ويقرّر يوسف عليه السّلام أنّه لا يفلح الظّالمون بحالٍ من الأحوال بل يخسرون دينهم ودنياهم معاً والعياذ بالله .

والشّيء الذي نودّ أن نقرّره هو أنّ يوسف عليه السّلام الذي آتاه الله تعالى شطر الحسن كما جاء في الحديث[3] لم تكن تجربته مع امرأة العزيز هي التّجربة المريرة الأولى إنّما سبق هذه التّجربة تجارب ومآسٍ فقد أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى أنّ الله تعالى آتى يوسف عليه السّلام جزاء إحسانه الحكمة والعلم اللّدنيّ حينما بلغ أشدّه وأصبح أحد الرّجال . وإذا كانت التّجربة مع امرأة العزيز ليست الأولى من نوعها فإنّها كانت الأشدّ مرارةً من غيرها . وكما كانت ليوسف عليه السّلام تجارب مريرة قبل تجربته مع امرأة العزيز فإنّه عليه السّلام له تجارب مريرة مع النّسوة بعد تجربته عليه السّلام مع امرأة العزيز على نحو ما يفهم من هذا القول على لسان يوسف عليه السّلام في الآية الكريمة الثّالثة والثّلاثين . قال تعالى : ﴿ وإلّا تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين ﴾ .

وبفضل الله تعالى كان يوسف عليه السّلام دائم النّجاح في كلّ اختبار .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٨/١٢ .

(٢) هئت : اسم فعل أمر بمعنى أقبل أو أسرع والفاعل أنت . فكأنها تقول : أقول لك أو الخطاب لك كما في سقيا لك ورعيا لك . انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٥٤/٦ .

(٣) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٤٧٦/٢ .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

لولا : حرفٌ يدلّ على امتناع شيءٍ لوجود غيره نحو : لولا العلاج لهلك . أي لولا العلاج موجودٌ[1] بإرادة الله تعالى .

كذلك : أي كما أريناه برهاناً صرفه عمّا كان فيه كذلك نقيه السّوء والفحشاء في جميع أموره[2] .

السّوء : الخيانة[3] .

والفحشاء : الزّنى[4] .

إنّه من عبادنا المخلصين : أي من المجتبين المطهّرين المختارين المصطفين الأخيار صلوات الله وسلامه عليه[5] .

نودّ أن نقف ابتداءً عند القول : ﴿ ولقد همّت به . وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه ﴾ . وقد عرفنا أنّ امرأة العزيز كانت مصمّمةً على أن تنال من يوسف عليه السّلام ما تريد ، وكان همّها مدفوعاً ومندفعاً بباعثٍ من النّفس الأمّارة بالسّوء ومن الشّيطان الرّجيم العدوّ المبين للإنسان . ولهذا نحن في أثناء التّلاوة يصحّ لنا أن نقف عند الجارّ والمجرور « به » فنقول : « ولقد همّت به » ثمّ نستأنف : ﴿ وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » وهذه الطّريقة الصّحيحة في التّلاوة يقترن بها جمالٌ صوتيّ مبعثه التّشابه في كلٍّ من الوقفين بين الباء والهاء السّاكنة في الموضعين . وبذلك تكون التّلاوة على النّحو التّالي : « ولقد همّت بِهْ . وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّهْ » .

ويصحّ أن تُتْلى الجزئيّةُ الكريمة بشقّيها مرّةً واحدةً فيكون الوقف على المضاف والمضاف

---

(١) المعجم الوسيط : « لولا » .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٥ .

(٣) الجلالين .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٥ .

إليه : « ربّه » وبذلك تكون التّلاوة على النّحو التّالي : « ولقد همّت بِهِ وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّهْ » .

فإذا تحوّلنا إلى الشّقّ الآخر المتعلّق بيوسف عليه السّلام : ﴿ وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه ﴾ فإنّا نودّ ابتداءً أن نستأنس بالآية الكريمة قبل السّابقة : ﴿ ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزي المحسنين ﴾ وقد فهمنا أنّ الله سبحانه وتعالى أعطى من لدنه يوسف عليه السّلام الحكمة والعلم اللّدنيّ جزاء إحسانه عليه الصّلاة السّلام حينما بلغ مبلغ الرّجال . بمعنى أنّ هذه الهبة من الله تعالى كانت في مقابل بلوغ يوسف عليه السّلام مرتبة الإحسان في كلّ شيء ، بما في ذلك مجال العفّة وقد بلغ عليه السّلام مبلغ الرّجال . وقد فهمنا من الآية الكريمة أنّ يوسف عليه السّلام الذي آتاه الله تعالى شطر الحسن قد تعرّض من قبل امرأة العزيز للكثير من المراودات وقد نجّاه الله تعالى منها ومن كلّ كربٍ وكافأه على إحسانه بالحكمة في ذلك المجتمع المترف غير الدّينيّ . وكان يفرّ دائماً وأبداً إلى أحكم الحاكمين الذي يهديه سبله وقد جاء في سورة العنكبوت[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وكما هدى الله تعالى يوسف عليه السّلام إلى سبله جلّ وعلا مع النّسوة السّابقات هداه جلّ وعلا في تجربته القاسية المريرة مع امرأة العزيز .

وإنّ أوّل ما نودّ أن نؤكّده هو أنّ الهمّين في الجزئيّة الكريمة مختلفان . إنّ الهمّ في القول عن امرأة العزيز : « ولقد همّت به » إيجابيّ ، وإنّ الهمّ في القول عن يوسف عليه السّلام : « وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » مدفوع بلولا الذي عرفنا أنّه حرف امتناع لوجود ، فأنا حينما أقول ــ مثلاً ــ لولا السّيل الجارف لقطعت الوادي أريد أن أقول إنّ السّيل الجارف منعني من قطع الوادي ، وإنّ الشّيء ذاته يلاحظ في القول : « وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » فأصل الكلام ــ والله تعالى أعلم ــ ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها . وبذلك نحن بصدد برهانٍ من الله تعالى موجود منع يوسف عليه السّلام أساساً من أن يهمّ بامرأة العزيز .

ونحن نفترض سائلاً يسأل ويقول : ما دام همّ يوسف عليه السّلام غير موجودٍ أساساً فلماذا جاء في الآية الكريمة القول : « وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » ولم يجيء القول : ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها . والجواب على هذا السّؤال الوجيه من ناحيتين اثنتين :

النّاحية الأولى هي أنّ القول عن يوسف لو جاء في هذه العبارة : ولولا أن رأى برهان

---

(١) الآية ٦٩ .

ليوسف

ربّه لهمّ بها ، لما كان يوسف عليه السّلام أيّ فضلٍ في الوصول إلى هذه النّهاية الحميدة . وأيّ فضلٍ لأيّ إنسانٍ يحال بينه وبين ما يهمّ به من سوء وفحشاء ؟ لا فضل . وإنّ الجزئيّة الكريمة تريد أن تبيّن أنّ ليوسف عليه السّلام الذي بلغ مرتبة الإحسان فآتاه الله تعالى الحكمة والعلم اللّدنيّ كان له بفضل الله دورٌ كبيرٌ في الوصول إلى هذه النّهاية الحميدة ، وكان من الله تعالى عونٌ ليوسف عليه السّلام وإسعاد على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الأخيرة من سورة العنكبوت : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ .

النّاحية الثّانية هي أنّ القول الذي جاء عن يوسف عليه السّلام : « وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » يحقّق بالقياس إلى القول عن همّ امرأة العزيز فائدتين اثنتين مهمّتين بسبب ما يسمّى في البلاغة العربيّة بالمشاكلة أو مراعاة النّظير أو الازدواج[1] .

وإليك هذا المثال من القرآن الكريم على المشاكلة أو مراعاة النّظير . جاء في سورة البقرة[2] عن المنافقين القول : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ إنّ استهزاء المنافقين معروفٌ معناه . فما معنى القول : « الله يستهزىء بهم » ؟ أي ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم . فسمّى العقوبة باسم الذّنب . هذا قول الجمهور من العلماء[3] إنّنا بصدد مشاكلة أو مراعاة النّظير أو ازدواج .

وإليك هذا المثال الآخر من كلام البشر . يقول عمرو بن كلثوم الشّاعر الجاهليّ :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمّى انتصاره جهلاً . والجهل لا يفتخر به ذو عقل . وإنّما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخفّ على اللّسان من المخالفة بينهما[4] ويعلّق الرّمّانيّ[5] على البيت : « فهذا حسنٌ في البلاغة ، ولكّنه دون بلاغة القرآن لأنّه لا يؤذن بالعدل .. » .

---

(١) يقول الرّمّانيّ في النُّكَت في إعجاز القرآن : « باب التّجانس . تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصلٌ واحد في اللّغة . والتّجانس على وجهين : مزاوجة ومناسبة . فالمزاوجة تقع في الجزاء » ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٩١ دار المعارف بمصر . ذخائر العرب ١٦ .

(٢) الآيــة ١٤ ، ١٥ .

(٣) تفسير القرطبيّ ١٨٠ .

(٤) تفسير القرطبيّ ١٨٠ .

(٥) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٩٢ والرّمّانيّ يقارن بين بيت عمرو بن كلثوم وعددٍ من آي الذّكر الحكيم منها الآيتان الكريمتان اللّتان استشهدنا بهما .

فإذا عدنا إلى الجزئيّة الكريمة بشقّيها من سورة يوسف : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » تبيّنا أنّ للمزاوجة فائدتين اثنتين ، جماليّة ومعنويّة . أمّا الفائدة الجماليّة فهي الخفّة على اللّسان وإن كان المعنيان مختلفين . وأمّا الفائدة المعنويّة فهي أنّ المزاوجة : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » أظهرت الدّور الإيجابيّ للشّابّ المحسن المرشّح للنّبوّة يوسف عليه السّلام وذلك بالمجاهدة في الله تعالى بإخلاص النّيّة وصدق العزيمة على التّخلّص من هذه البليّة والاستعانة بالله تعالى الذي يجيب وحده لا شريك له المضطرّ إذا دعاه ويكشف الغمّة ويصرف السّوء . إنّ المزاوجة هنا تبيّن دور يوسف عليه السّلام الإيجابيّ في الوصول بعونٍ من الله تعالى إلى هذه النّتيجة السّعيدة . وحينما كان من يوسف عليه السّلام جهادٌ في الله تعالى واستعانةٌ به جلّ وعلا كان منه عزّ وجل القريب المجيب هدايةٌ ليوسف عليه السّلام إلى سبيله جلّ وعلا فكان منه تعالى البرهان الذي لا نعرفه على حقيقته والذي كان منه بفضل الله تعالى صرفٌ للسّوء والفحشاء عن العبد المخلَص المنتقى المجتبى المصطفى المختار المرشّح للنّبوّة يوسف عليه السّلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم[1] .

أما وقد تبيّن أنّ يوسف عليه السّلام لم يكن منه همّ أساساً فإنّا نودّ بشأن التّلاوة أن نؤكّد أنّ الجزئيّة الكريمة يجب ألّا يكون معها وقفٌ على « بِها » لأنّ هذا الوقف يجعل همّ يوسف من جنس همّ امرأة العزيز وهذا غير صحيح . وهكذا يتبيّن أنّ ثمّة تلاوةً واحدةً فقط منهيّاً عنها وهي التي يتمّ معها الوقف على الجارّ والمجرور : « بها » وكلّ تلاوةٍ وراء هذه التّلاوة صحيحة .

وبشأن القول : « ولقد همّت به » يلفت نظرنا اللّام التي تفيد التّوكيد وقد التي تفيد التّحقيق .

وبشأن القول : « وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » يلفت نظرنا المضاف والمضاف إليه : « ربّه » إنّ لفظ الرّبّ الذي تفيض معانيه بالتّربية بالنّعم والآلاء وبالودّ والرّحمة والمحبّة والحنان والخصوص هو الذي يجيء هنا تأكيداً لهداية الرّبّ جلّ وعلا عبده المستعين به اللّاجيء إليه المتوكّل عليه .

وإنّ الآية الكريمة تبيّن أنّه جلّ وعلا كذلك أراه أو عصمه أو فعل به ... إلخ[2]

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٩٥ .

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٣٥٥ .

ليصرف عنه السّوء والفحشاء في كلّ أموره . إنّ يوسف عليه السّلام من عباد الله تعالى المصطفَيْن الأخيار بسبب إخلاصهم العبادة لله تعالى وتبرؤهم من كلّ ما دون الله تعالى[1] .

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

واستبقا الباب : وخرجا يستبقان إلى الباب[2] .

وقدّت قميصه من دبر : يعني شقّته من خلف لا من قدّام لأنّ يوسف كان هو الهارب وكانت هي الطّالبة[3] .

وألفيا سيّدها لدى الباب : وصادفا سيّدها وهو زوج المرأة ، لدى الباب ، يعني عند الباب[4] .

قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً : ما جزاء رجلٍ أراد بامرأتك الزّنى[5] .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خلص » ١٥٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٥ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/١١٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/١١٤ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/١١٤ .

إن كان قميصه قدّ من قبل : أي من قدّام[1] .

وإن كان قميصه قدّ من دبر : أي من وراء[2] وخلف[3] .

يوسف أعرض عن هذا : أي اضرب عن هذا صفحاً أي فلا تذكره لأحد[4] .

إنّك كنت من الخاطئين : الخاطىء هو الذي يتعمّد ارتكاب الخطأ . يقال : خَطِىء يَخْطَأُ خِطأً وخِطْأَة . والمخطىء هو الذي يقع في الخطأ دون قصدٍ منه . يقال : أخطأ إخطاءً فهو مخطىء[5] .

تشير الآية الكريمة الأولى إلى الاستباق العنيف الذي تمّ بين يوسف عليه السّلام الذي أراد الفرار بدينه فاتّجه صوب الباب كي يفتحه ويخرج من الدّار ، وبين امرأة العزيز التي أرادت اللّحاق والإمساك به ومنعه من الخروج حتّى تقضي حاجتها منه . واستطاعت المرأة أن تمسك بقميص يوسف من ورائه وأن تمزّق القميص من خلفه وفي ذات اللّحظة تمكّن يوسف عليه السّلام بفضل الله تعالى من فتح الباب وألفيا السيّد عنده ووجدا الزّوج هنالك وكأنّه يهمّ بدخول المنزل . وكانت مفاجأة الزّوجة بخاصّة كبيرة ، وكأنّها لم تكن تتوقّع عودة الزّوج في تلك الأثناء . وبدلاً من أن تتوب الزّوجة وتعود إلى رشدها هي تتّهم يوسف عليه السّلام بأنّه هو الذي أراد بها سوءاً وتصدر في حقّ يوسف حكمين جزاء إرادة السّوء بها ، أن يودع السّجن أو أن ينال العذاب الأليم !

وفي الآية الكريمة الثّانية يبادر يوسف عليه السّلام إلى دفع التّهمة ويبيّن للزّوج بصريح اللّفظ أنّها هي التي راودته عن نفسه وأنّها هي التي بذلت كلّ المحاولات كي يرتكب جريمة الزّنى معها .

ويشاء الله تعالى أن يكون ثمّة الدّليل على براءة يوسف عليه السّلام قبل اتّهام الزّوجة له وذلك عن طريق قميصه الذي شقّته من خلفه ومزّقته من ورائه في أثناء اجتهاده في الفرار منها .

ويشاء الله تعالى أن يكون ثمّة الشّاهد الحكيم القريب من المرأة نسباً فهو من أهلها ، القريب موقعاً فهو في القصر ذاته . ويحاط الشّاهد الحكيم علماً بالقضيّة ويضع قاعدتين ،

---

(١) الجلالين وتفسير ابن كثير ٢/٤٧٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٥ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٦ .

(٥) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خطأ » ١٥١ .

أولاهما في هذه الآية الكريمة وهي في صالح المرأة وكأنّه كان يتمنّى تحقّقها في حقّ المرأة من أهله . وهذه القاعدة الأولى : ﴿ إن كان قميصه قُدّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ لأنّ تمزيق القميص من أمام يوسف وجهة صدره معناه أنّ المرأة قاومته ودفعته عنها حتّى قدّت قميصه من قُبل .

وأمّا القاعدة الأخرى المتأخرة وهي في صالح يوسف فإنّها التي جاءت في الآية الكريمة التّالية : ﴿ وإن كان قميصه قُدّ من دُبُرٍ فكذّبت وهو من الصّادقين ﴾ وهذا هو الذي وقع فعلاً فإنّ يوسف هو الذي فرّ وهي التي طاردته حتّى أمسكت بقميصه من خلفه ومزّقته .

وفي الآية الكريمة الرّابعة تتكشّف الحقيقة وتثبت براءة يوسف وكذب المرأة ويصدر الشّاهد حكمه . إنّ الشّاهد لمّا رأى قميص يوسف قُدّ من دبره قال للمرأة إنّ كلّ هذا الذي وقع هو من كيدكنّ أيّتها النّسوة ومكركنّ . إنّ كيدكنّ عظيم ومكركنّ كبير .

وفي الآية الكريمة الخامسة يصدر الشّاهد حكمه التّفصيليّ . إنّ على يوسف أن يُعْرض عن هذا الأمر تماماً وألّا يشير إليه أبداً من قريبٍ أو بعيد . وإنّ على المرأة أن تستغفر لذنبها إنّها كانت من الخاطئين المتعمّدين ارتكاب الخطأ وما أكثر هؤلاء .

ومن البيّن أنّ هذا الأمر الخطير وقف عند هذا الحدّ ليس لأنّ يوسف عليه السّلام هو البريء ولكن لأنّ امرأة العزيز هي المتّهمة !

وهكذا تكون الأمور في المجتمعات غير الدّينيّة وفي الطّبقات المترفة التي تلقّب بالرّاقية ، وهو رقيّ معكوس ، وهكذا تداس الكرامات وتهدر الحقوق وصدق الحقّ جلّ وعلا إذ يقول[1] : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً ﴾ .

والعجيب في الأمر أنّ الزّوج ـ لأمرٍ يريده الله تعالى ـ لا يخطر بباله مجرّد التّفريق في المكان بين يوسف عليه السّلام الطّاهر الذّيل العفيف وبين المرأة التي كذبت على يوسف والتي تمّت فضيحتها على رءوس الأشهاد . وربّما لم يخطر ببال الزّوج تصرّفٌ كهذا بسبب ثقته المطلقة في أمانة يوسف عليه السّلام وعفّته ، ولكنّ يوسف عليه السّلام ظلّ يدفع ثمن ذلك القرب من امرأة العزيز .

---

(١) سورة الإسراء ١٦ .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

وقال نسوةٌ في المدينة : النّسوة بكسر النّون فِعْلة وهو جمع تكسير للقلّة لا واحد له من لفظه[١] والمدينة مدينة مصر[٢] .

تراود : المراودة المطالبة برفق من راد يرود إذا ذهب وجاء . وهي مفاعلة من واحد نحو : داويت المريض . وكنى به عن طلب النّكاح والمخادعة لأجله ولذلك عدّاه بعن[٣] .

فتاها : عبدها[٤] .

قد شغفها حبّاً : يقول قد وصل حبّ يوسف إلى شغاف قلبها فدخل تحته حتّى غلب على قلبها . وشغاف القلب حجابه وغلافه الذي هو فيه[٥] .

شاع في مدينة مصر خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السّلام وأصبح حديث النّساء في البيوت والمنتديات . ومن اللّائي تحدّثن في الأمر نسوةٌ في المدينة من بيوت الكبراء والأمراء فقلن في إنكار : إنّ امرأة العزيز ، ويلاحظ أنّنا الآن أمام ذكر لفظ العزيز لأوّل مرّةٍ في السّورة الكريمة ، والعزيز لقبٌ آنذاك لمن يشغل حاليّاً منصب رئيس الوزراء أو ما في حكمه ، إنّ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه وتخادع عبدها لأجل أن يواقعها ، قد وصل حبّ يوسف إلى شغاف قلبها ، فاخترق حجاب القلب وغلافه واستقرّ في أعماق فؤادها . إنّا لنراها في ضلالٍ مبينٍ وخطأٍ واضحٍ فاضحٍ .

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٩٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/١١٧ .

(٣) انظر البحر المحيط ٥/٢٩٣ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/١١٧ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/١١٧ .

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

وأعتدت لهنّ متّكأً : وأعدّت لهنّ متكـأً[1] قال ابـن عبّـاس وسعيـد بن جبير ومجاهـد والحسن والسّدّي وغيرهـم : هو المجلس المعدّ فيـه مفـارش ومخادّ وطعـام ، فيـه ما يقطـع بالسّكاكين من أُتْرُجّ ونحوه[2] .

وقالت اخرج عليهنّ : وذلك أنّها كانت قد خبّأته في مكانٍ آخر[3] .

فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ : أي أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطّعن أيديهنّ دهشاً برؤيته وهنّ يظنّنّ أنّهنّ يقطّعن الأترجّ بالسّكاكين[4] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١١٩/١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٦/٢ وتفسير الطّبريّ ١١٩/١٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٧٦/٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٦/٢ .

وقلن حاش لله : تنزيهاً لله[1] ومعاذ الله[2] .

فاستعصم : عن ابن عبّاس فامتنع[3] والاستعصام بناء مبالغة يدلّ على الامتناع البليغ والتّحفّظ الشّديد كأنّه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ، ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرّأي واستفحل الخطب[4] .

أصب إليهنّ : أمل إليهنّ[5] .

ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين : ثمّ بدا لهم في الرّأي الذي كانوا رأوه من ترك يوسف مطلقاً ورأوا أن يسجنوه من بعد ما رأوا الآيات ببراءته ممّا قذفته به امرأة العزيز[6] حتّى حين : إلى حين ينقطع فيه كلام النّاس[7] .

تشير الآية الكريمة الأولى إلى مكر امرأة العزيز بالنّسوة اللّاتي لُمْنها على فرط حبّها لعبدها الغلام يوسف . إنّها نزّلت قولهنّ فيها ولومهنّ لها منزلة المكر بها فقرّرت أن تبادلهنّ مكراً بمكر وكيداً بكيد . ومع أنّ ما قال النّسوة عنها وصلها بطريق غير مباشرٍ فإنّها لاهتمامها بردّ الفعل لدى النّسوة بخاصّةٍ كانت غايةً في الانتباه واليقظة لكلّ لفظةٍ يتفوّه بها ولكلّ همسةٍ يهمس بها لذا نزّلت الآية الكريمة قول النّسوة عنها ولومهنّ لها منزلة ما سمعته المرأة مباشرةً بأذنيها . والمعروف أنّ الأذن تتقدم سائر الحواسّ في تلقّي المعرفة ، وبناءً على تقدّم وسيلة التّلقّي تكون قوّة ردّ الفعل ، وكان ردّ فعل المرأة مكراً بالنّسوة ، فكيف كان مكرها وكيف تمّ كيدها ؟

لقد قرّرت امرأة العزيز عمل وليمة دعت إليها أولئك النّسوة المترفات اللّاتي قلن عنها ما شئن ، وأعدّت لهنّ على جهة الخصوص ضرباً من الفاكهة هو الأُتْرجّ فيما يقال لا يؤكل إلّا بعد أن يقطّع بالسّكاكين ، وبخاصّةٍ في تلك الطبقة المترفة التي بلغت مستوًى رفيعاً في مجال الحضارة المادّيّة بحيث إنّها تستعمل في أثناء تناول الفاكهة السّكاكين ، وأعطت امرأة العزيز كلّ امرأةٍ من النّسوة سكّيناً لتقطيع الفاكهة ظاهراً ، لغايةٍ لئيمةٍ أضمرتها في أعماقها باطناً .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/١٢٣ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/١٢٤ وتفسير ابن كثير ٢/٤٧٧ .

(٤) الكشّاف ٢/١٣٥ .

(٥) الجلالين وتفسير الطّبريّ ١٢/١٢٥ .

(٦) تفسير الطّبريّ ١٢/١٢٥ .

(٧) الجلالين .

وبعد أن تناول النّسوة الطّعام وحان تناول الفاكهة ، والمعروف في الطّبقات الرّفيعة التّكلّف الظّاهر في تناول الأطعمة والفاكهة ، ففي لحظةٍ معيّنةٍ يبدأ الجميع تناول الطّعام ، وفي لحظةٍ أخرى معيّنةٍ يتناول الجميع الفاكهة . وفي اللّحظة التي همّ فيها النّسوة باستعمال السّكاكين لتقطيع الفاكهة أمرت المرأة فتاها يوسف الذي أعطاه الله تعالى شطر الحسن كما ثبت في الحديث الصّحيح[1] أن يخرج عليهنّ في أجمل حلّة وأبهى زينة فقطّعن أيديهنّ بدلاً من تقطيع الفاكهة أو مع تقطيع الفاكهة وهنّ لا يشعرن بألم التّقطيع المتواصل لأيديهنّ بالسّكاكين بسبب إكبارهنّ ليوسف وإجلالهنّ لجمال الغلام وانفجرن معاً قائلات : ﴿ حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملكٌ كريم ﴾ وتنزيهاً لله تعالى القادر على كلّ شيءٍ الذي خلق هذا الجمال غير المعهود عند البشر ولكن عند الملائكة وهي تلك الأجسام النّورانيّة الخيّرة التي استقرّ في النّفوس بشأنها أنّ جمالها فتّان . إنّ هذا الفتى يوسف لتخطّيه حدود البشر في الجمال والكمال ما هو إلّا ملكٌ من الملائكة كريم . والذي أضفى إلى جمال يوسف عليه السّلام الخِلْقيّ جماله الخُلُقِيّ فإنّ لتقوى الله تعالى في السّرّ والعلن آثارها الحسنة على القسمات المليحة والوجه الصّبيح . وهكذا كسبت امرأة العزيز جولتها مع النّسوة اللّاتي عنفن بها في اللّوم .

والحقيقة أنّ جمال الصّلاح والتّقوى الذي أضاف إلى جمال يوسف عليه السّلام جمالاً وكمالاً يحملنا على أن نقف مليّاً عند جملةٍ واحدةٍ في الآية الكريمة هي جملة : « اخرج عليهن » لعلاقة هذه الجملة بالتّقوى ولأنّها مظهرٌ من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد . إنّ امرأة العزيز يجيء على لسانها القول غير المتوقّع : « وقالت اخرج عليهنّ » ولا يجيء على لسانها القول المتوقّع : وقالت ادخل عليهنّ . إنّ أعظم كاتب قصّة من بني آدم وبنات حوّاء لا يخطر بباله أو ببالها إلّا جملة : ادخل عليهنّ ، ولكنّ القرآن الكريم يجيء فيه القول : ﴿ وقالت اخرج عليهنّ ﴾ فما الحكمة من الأمر بالخروج وليس بالدّخول ؟

الحقيقة أنّ جملة : ﴿ اخرج عليهنّ ﴾ هي الجملة الوحيدة القادرة على حمل كلّ انفعالات امرأة العزيز إلينا في ظرف وعرضها في لطف .

إنّ امرأة العزيز على علمٍ بأنّ كلّ ملابسات الوليمة يمكن لها أن تتحكّم فيها وتتغلّب عليها إلّا شيئاً واحداً لا يحكمه ولا يتغلّب عليه إلّا جملة : ﴿ اخرج عليهنّ ﴾ وتفسير ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٦ .

أنّ امرأة العزيز ورئيس وزراء مصر آنذاك تستطيع أن تعمل الوليمة التي تتمنّى وتضمن مجيء النّسوة اللّاتي مكرن بها حينما تدعوهنّ لأنّهنّ يعتبرن الدّعوة اعترافاً برقيّهنّ وسموّهنّ وهنّ يحرصن على كلّ ذلك . وإنّ امرأة العزيز تريد أن تضمن شيئاً واحداً يترتّب عليه وحده نجاح مكرها وهذا الشّيء الواحد هو طاعة الفتى يوسف لها حينما تأمره بالخروج على النّسوة في اللّحظة الحاسمة وهو الذي تعرف أنّه إنّما يطيعها فيما لا يعصي فيه ربّه جلّا وعلا ، وهو الذي تعرف أنّه طعنها الطّعنة النّجلاء حينما راودته عن نفسه فخاف الله تعالى وامتنع عن إتيان الصّغار بإباء فأنقذه الله تعالى من تلك الورطة .

إنّ امرأة العزيز كي تضمن مرور يوسف بالنّسوة ورؤيتهنّ له في كامل زينته لا تجعله في موضعٍ من المنزل في ناحية الباب الخارجيّ بحيث إنّها حينما تأمره بالدّخول على النّسوة فيرفض يستطيع أن يفرّ من الباب الخارجيّ للبناء ، إنّما تجعله عليه الصّلاة السّلام في موضعٍ من المنزل داخليّ ، بحيث يكون تحوّله من موضعه إلى موضع الوليمة خروجاً ، وبحيث لا يستطيع يوسف عليه السّلام حينما يؤمر بالخروج على النّسوة في اللّحظة الحاسمة إلّا أن يمرّ بالنّسوة سواءٌ أكان طائعاً أم مضطرّاً . وفي كلتا الحالتين يخرج يوسف عليه السّلام في لحظة اتّكاء النّسوة بالسّكاكين على الفاكهة . وبالخروج على النّسوة وحده تنجح المرأة في كيدها للنّسوة ولهذا جاء ــ والله تعالى أعلم ــ في الآية الكريمة القول : ﴿ وقالت اخرج عليهنّ ﴾ .

والآية الكريمة الثانية تبيّن أخذ العزّة بالإثم امرأة العزيز . والآية الكريمة تتألّف من شقّين . الشّقّ الأوّل وفيه التّشفّي من النّسوة : ﴿ قالت فذلكنّ الذي لمتنني فيه ﴾ والشّقّ الآخر وفيه موقفٌ للمرأة متطوّرٌ إلى الأسوأ تجاه يوسف عليه السّلام : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجننّ وليكوناً من الصّاغرين ﴾ .

وبشأن شقّ التّشفّي نصادف القول : « فذلكنّ » ذا اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفعٍ مبتدأ . واللّام للبعد . وكنّ حرف خطاب جمع الإناث[1] إنّ اسم الإشارة ذا يشير إلى الفتى يوسف الحاضر آنذاك في أثناء خطاب المرأة للنّسوة ، والذي كان غائباً وبعيداً حينما لام النّسوة المرأة على مراودتها له عن نفسه . وإنّ اللّام المتعلّقة بالبعد تنبّه إلى أنّ هذا الفتى الحاضر الآن كان بعيداً حينما لام النّسوة المرأة بسببه . أمّا « كنّ » فهو حرف خطاب جمع الإناث . وبذلك يشمل هذا القول : « فذلكنّ » حالتي قرب يوسف وبعده معاً وفي آنٍ واحد . إنّ المرأة تريد أن تقول للنّسوة لائمةً لهنّ وموبّخةً إنّ هذا الفتى الفائق الجمال الواقف

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٦٤/٦ .

أمامكنّ هو ذلك الفتى الغائب الذي لمتنّني في هواه .

وبشأن شقّ الموقف المتطوّر للمرأة نتبيّن أنّه يقرّر أنّ المرأة التي كانت تراود يوسف عن نفسه في الخفاء وتتّهمه بإرادة السّوء بها تكشف برقع الحياء وتعلن على رءوس الأشهاد من النّسوة اللاّتي يقف يوسف أمامهنّ بأنّها قد راودت يوسف عن نفسه وبأنّها تأمره بأن يفعل ما تريده وبأنّها تهدّده على مسمعٍ منه بأنّه إن لم يفعل ما تأمره به ليُسجننّ وليكونن في السّجن من الصّاغرين الحقيرين !

والآية الكريمة الثّالثة تبيّن إيثار يوسف عليه السّلام الآجلة على العاجلة مهما يكن الامتحان قاسياً والابتلاء شديداً ، كما تبيّن فرار يوسف عليه السّلام إلى أحكم الحاكمين . إنّ يوسف عليه السّلام الذي يعتبر أسوةً حسنةً لكلّ شابٍّ مسلمٍ لله ربّ العالمين حينما يقارن بين الزّجّ به في السّجن ظلماً ثمناً لعفّته وطهارته وبين بقائه حرّاً طليقاً منعّماً بارتكابه جريمة الزّنى يؤثر السّجن على إغضاب الله تعالى : ﴿ قال ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه ﴾ ويلاحظ الأدب الذي فطر الله تعالى عليه يوسف عليه السّلام في القول الذي يجيء : ﴿ ممّا يدعونني إليه ﴾ وليس في القول : ممّا تدعوني امرأة العزيز إليه ، أو : ممّا تدعوني المرأة إليه . وإنّ ما جاء في الآية الكريمة يشمل امرأة العزيز ويشمل سواها وقد عرفنا أنّ يوسف كان يتعرّض دائماً لأمثال هذه المضايقات من النّسوة .

وإنّ يوسف عليه السّلام ليفرّ إلى مولاه جلّ وعلا ويستعين به عزّ وجلّ على دفع البلاء الذي حلّ به ، ويعبّر لبارئه القادر على كلّ شيء عن ضعفه وعجزه وقلة حيلته . إنّ ربّ العزّة إن لم يصرف عن يوسف عليه السّلام كيد النّسوة يمل إليهنّ بقلبه ، ويكن من الجاهلين ـ لا سمح الله ـ السّفهاء بارتكاب جريمة الزّنى معهنّ .

والآية الكريمة الرّابعة تبيّن استجابة الله تعالى دعاء المضطرّ يوسف عليه السّلام فصرف جلّ وعلا عنه كيدهنّ ومكرهنّ . إنّه جلّ وعلا هو السّميع لكلّ قول ، العليم بكلّ نيّةٍ وفعل . ويصحّ أن يكون ذلك الصّرف من الله تعالى للكيد عن يوسف بإبعاده عن مكان امرأة العزيز وفتنة النّساء .

والآية الكريمة الخامسة تصوّر أبلغ تصوير انهيار تلك المجتمعات المترفة أخلاقيّاً بسبب خوائها الرّوحيّ فهي تعجبك شكلاً إذا رأيتها على غرار الإعجاب بشكل الحضارة الحاليّة المادّيّة ، وهي في أعماقها قذرة عفنة نتنة . إنّ أصحاب الحلّ والعقد في ذلك المجتمع المنحطّ أخلاقيّاً لا يستطيعون تقويم نسائهم خلقيّاً ولا كبح جماحهنّ عن الشّهوات فيبدو لهم رأيٌ عجيبٌ وغريبٌ رغم أنّهم رأوا بعيونهم التي في رءوسهم الآيات البيّنات الواضحات على عفّة

يوسف عليه السّلام وطهره ، أمّا هذا الرّأي العجيب والغريب فهو الحكم على يوسف بالسّجن عقاباً له على طهره وعفّته مدّة بقاء الحديث حيّاً والشّائعات دائرةً على الأفواه في حقّ امرأة العزيز والنّسوة مع الفتى يوسف العفيف الطاهر . ونستطيع أن نفهم من اشتراك أكثر من شخصٍ ذي سلطةٍ في اتّخاذ هذا القرار الظّالم أنّ تجربة يوسف المريرة لم تكن مقصورةً على امرأة العزيز وحدها إنّما شارك امرأة العزيز ونافسها على يوسف عليه السّلام أخريات .

وهكذا زجّ الظّالمون بيوسف عليه السّلام في السّجن على أمل إخراجه بعد أن تهدأ الشّائعات فنسيه عباد الله تعالى ولكنّ ربّ العباد أفاض عليه من الخيرات والبركات ما لا يكاد يأتي عليه الحصر وعلى رأس الخيرات والبركات إكرامه بنعمة النّبوّة في السّجن والقدرة على تعبير الرّؤى فقد كان عليه الصّلاة السّلام أعبر النّاس للرّؤى . وبإذن الله تعالى كانت القدرة على تعبير الرّؤى وتأويل الأحاديث السّبب في خروج يوسف عليه السّلام من السّجن .

وإنّ هذه الدّروس العظيمة التي يلقيها الشّابّ يوسف عليه السّلام على شباب أمّة الإسلام من منبر القرآن الكريم نودّ أن نحلّيها بهذا الحديث الذي جاء في الصّحيحين : ثبت أنّ رسول الله ﷺ قال : سبعةٌ يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه . إمامٌ عادل . وشابّ نشأ في عبادة الله . ورجلٌ قلبه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتّى يعود إليه . ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه . ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه . ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات جمالٍ ومنصبٍ فقال إنّي أخاف الله[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٧ وطبعة الشّعب ٤/٢١٣ وانظر ثمّة تخريج الحديث .

((يوسف عليه السّلام في السّجن يكرمه
الله تعالى بالنّبوّة وتعبير الرّؤى
فيدعو إلى التّوحيد ويعبّر رؤيا الفتيين))
الآيات (٣٦ ـ ٤٢)

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

ودخل معه السّجن فتيان : قال قتادة : كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبّازه[1] قال السّدّيّ : كان سبب حبس الملك إيّاهما أنّه توهّم أنّهما تمالآ على سمّه في طعامه وشرابه[2] .

قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً : قال ابن عبّاس : إنّي أراني أعصر خمراً ، قال : عنباً[3] .

جاء على لسان نسوة المدينة لفظ فتى إشارةً إلى يوسف عليه السّلام الذي كان وقتها غلاماً . قال تعالى[4] : ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ ويجيء في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها القول : « ودخل معه السّجن فتيان » والمعنى : ودخل مع يوسف عليه السّلام الفتى المبتلى فتيان اثنان رِجْلاً برجل . وتتجلّى رحمة الله تعالى بيوسف عليه السّلام الغلام أنّه يدخل معه رِجْلاً بِرِجْل غلامان مماثلان له في السّنّ ، والمعروف أنّ الإنسان آلف وآنس لمن هو في مثل سنّه . ووراء ذلك فإنّ أحد الفتيين وهو السّاقي الذي نجا من القتل كان بإذن الله تعالى السّبب في خروج يوسف عليه السّلام من السّجن ، فهو الذي أرشد ملك مصر إلى يوسف الذي كان آنذاك في السّجن كي يعبّر رؤيا الملك التي عجز عن تعبيرها الخاصّة والعامّة .

والآية الكريمة تقرّر أنّ أحد الفتيين وهو السّاقي رأى رؤيا ذات علاقةٍ بطبيعة عمله : « قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً » لقد رأى السّاقي نفسه في المنام يعصر عنباً لصنع الخمر . فقد عبّر عن العنب بلفظ الخمر باعتبار ما يئول إليه . ويلاحظ اهتمام السّاقي بالرّؤيا وبحرصه على تعبيرها ومعرفة ما تئول إليه بسبب مجيء جملة : « أراني » في صيغة الزّمن المضارع الذي يدلّ على الاستمرار والتّجدّد . كما تقرّر الآية الكريمة أن الفتى الآخر وهو

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/١٢٧ .

(٤) سورة يوسف ٣٠ .

الخبّاز رأى هو الآخر رؤيا ذات علاقةٍ بطبيعة عمله : « وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه » ويلاحظ كذلك اهتمام الخبّاز بالرّؤيا وبحرصه على تعبيرها ومعرفة ما تئول إليه بسبب مجيء جملة : « أراني » ذاتها .

ويطلب الفتيان من يوسف عليه السّلام تعبير رؤيهما ، ويعيّنان السّبب الذي دفعهما إلى طلب تأويل رؤيهما منه بالذّات ، لأنّهما يريانه من المحسنين . ولا نزال مع صيغة الزّمن المضارع : « نراك » ولا نزال كذلك مع صفة الإحسان التي تُخْلَع على يوسف عليه السّلام في مواضع عديدة في هذه السّورة الكريمة .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

ما أنزل الله بها من سلطان : أي حجّة ولا برهان[1] .

إن الحكم إلّا لله : ما الحكم[2] والتّصرّف والمشيئة والملك[3] إلّا لله الذي أمر عباده

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٧٩ .

قاطبةً ألّا يعبدوا إلّا إيّاه[1] .

ذلك الدّين القيّم : ذلك الدّين المستقيم الذي أمر الله به وأنزل به الحجّة والبرهان الذي يحبّه ويرضاه[2] .

برحمة الله تعالى دخل مع يوسف عليه السّلام رِجْلاً بِرِجْل فَتَيان آنسا من ناحيةٍ وحشته فالفتى للفتى آلف ، وكان الذي نجا منهما من ناحية أخرى وبشّره يوسف عليه السّلام بنجاته بناءً على رؤياه سبباً بإذن الله تعالى في خروج يوسف عليه السّلام من السّجن . وفي أثناء بقاء يوسف عليه السّلام المظلوم في السّجن أكرمه الله تعالى بالنّبوّة وبالقدرة على تعبير الرّؤى . وهكذا تحفّ رحمة الله تعالى بيوسف عليه السّلام منذ البداية وحتّى النّهاية مروراً بالأثناء .

وما دام الفتيان السّجينان قد رأى كلٌّ منهما رؤيا تتعلّق بحياته فلا شكّ أنّ ما يهتمّ له كلٌّ منهما هو تعبير رؤياه .

وما دام يوسف عليه السّلام قد أكرمه ربّه جلّ وعلا في السّجن بالنّبوّة من ناحية ، وبآيته التي خصّه الله تعالى بها وهي تأويل الأحاديث وتعبير الرّؤى من ناحية أخرى ، فلا شكّ أنّ ما يهتمّ له يوسف عليه السّلام المجتبى المختار هو الدّعوة إلى الله تعالى فتلك هي مهمّة كلّ النّبيّين ، أمّا تعبير الرّؤيا الذي اعتبره الفتيان غايةً لهما فإنّه وسيلة يوسف عليه السّلام في سبيل الدّعوة إلى التّوحيد .

وهكذا دعا يوسف عليه السّلام إلى توحيد الله تعالى في أربع آياتٍ كريمات ، في حين عبّر رؤيا الفتيين في آيةٍ كريمةٍ واحدةٍ رتّب فيها تعبيرهما وفق ترتيب الفتيين رؤيهما في الآية الكريمة الأولى في هذا القسم . والحقيقة أنّ يوسف عليه السّلام يلقي علينا نحن المسلمين من منبر القرآن الكريم درساً في مجال الدّعوة إلى الله تعالى . اهتبل أيّها الدّاعية إلى الله تعالى كلّ فرصة . وإنّ هذا الدّرس العظيم المستفاد في مجال الدّعوة إلى الله تعالى ذكّرني من ناحيةٍ بأعمال الآباء والأجداد المجيدة في مجال الدّعوة إلى الله تعالى حتّى إنّهم بفضل الله تعالى قد أدخلوا شعوباً مختلفةً في دين الإسلام الذي بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ والذي لا يقبل الله تعالى من عبدٍ ديناً سواه ، بحيث إنّ هؤلاء الدّعاة قد نشروا بفضل الله تعالى الإسلام في زهاء ثلثي العالم الإسلامي باعتبار الجيوش الإسلاميّة قد أوصلت كلمة الحقّ إلى زهاء ثلث العالم الإسلاميّ فقط . وذكّرني هذا الدّرس العظيم من ناحيةٍ أخرى بتقاعس بعض الدّعاة إلى

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٩/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٩/٢ .